وما إن وصلَ جيشُه الى مضيقٍ قرب مكة حتى انهالَ أهلُها المعتصمون بجبالِ ذلك المضيقِ على جيشِ الحميريين بالحجارةِ فمزّقوهُ شرَّ تمزيقٍ. ولقد أسهبَ المؤرخون العرب الكلامَ على المعركةِ فحلّلوا اسبابَ انهزامِ الجيشِ وتمزُّقِ شملِه حتى عسرَ على الباحثِ تحديدَ أسبابِه.

تشيرُ بعضُ المصادرِ وعلى الاخصِ بروكوبيوس المؤرخ القيصري الذي عاشَ في نصفِ القرنِ السادسِ الى أنَّ الامبراطورَ جوستين طلبَ من أبرهة حليفِه أنْ يُهاجِمَ بلادَ الفرسِ انطلاقاً من الجزيرةِ العربيةِ فتعهَّدَ له بذلك مراراً. ولذلك قد تكونُ هذه الحملةُ على مكة جزءاً من الحملةِ على الفرسِ التي لم تُفلِحْ ولمَّا تنطلقْ بعد. إنْ صحَّ هذا التعليلُ فتكونُ الحملةُ على مكة دليلاً على نصرةِ التحالفِ القائمِ بين الجنوبِ العربيِّ وبلادِ الرومِ تدعيماً للوجودِ المسيحيِّ هناك.

توفي أبرهة بعد الدحورِ الذي أصابَه في مكة فجُعلَ أكسومُ ابنُه خليفةً على الجنوبِ العربي، الذي اقتفى أثرَ ابيه في عدائه لليهود. واحتذى كذلك أخوه مسروق من بعدِه مثالَه فسارَ على خطى العداءِ لليهود، فتشاوروا في مخاصمتِه أو قتلِه.

يمكنُنا أنْ نَستقرىءَ أحوالَ المسيحيةِ في الجنوبِ العربيِّ من خلالِ النقوشِ الأثريةِ القائمةِ في مأرب عاصمةِ المملكةِ السبئيةِ الثانيةِ، والتي اشتهرتَ بالسدِّ المُشادِ لتنظيمِ الريِّ ووقايةِ العاصمةِ من أخطارِ الفياضاناتِ الموسميةِ. ينسبُ المؤرخون خرابَه الى سيلٍ عَرِمٍ أو الى زلزالٍ كبيرٍ حدثَ حوالي سنة ٥٧٠م. فالنقوشُ الأثريةُ مرفوعةٌ كحمدٍ لله على الانتهاءِ من إقامةِ هذا السدِّ وغيرِه من السدودِ المُشادةِ في مأرب. هذه النقوشُ تحملُ تاريخَ ٥٤٢ م، وتُظهرُ أبرهةَ ملكاً على سبأ وحضرموت وذوريدان، على أنَّها تُشيرُ الى الإعترافِ بملكيةِ أكسوم سيداً مطلقاً. والفاتحةُ في هذه النقوشِ هي تضرع الى الإلهِ الأحدِ ذي الأقانيمِ الثلاثة:

«بقوةِ ونعمةِ ورحمةِ الرحمن ومسيحِه والروحِ القدسِ».

وتأتي على ذكرِ بناءِ كنيسةٍ جديدةٍ في المدينةِ مأرب.

إذا ما رجَعْنَا الى إطارِ الأحداثِ وفقَ السياسةِ التي فرزتَ أهلَ الجنوبِ العربيِّ الى مُعَسكريَن يُطلبان الحمايةَ من القوتيّن العُظمَيين وهما: الروم والفرس فنرى أنَّ المسيحيين العربَ كانوا يوالون الدولةَ الرومية ويرقبونَ حمايةً ورعايةً من القسطنطينية ومن دولة اكسوم الحبشيةِ المتحالفةِ مع الروم . أمَّا الوثنيون واليهودُ فلاذوا بالفرسِ مستترين ومتحصنين بهم. ومن عطفِ المدائنِ أفلحوا في إخضاع الجنوبِ العربي لبلاد الفرس.

هنا تبدأ قصة الزعيم اليهودي سيف ابن ذي يزن (ت ٥٧٤) الملكُ الحميري الذي أخفقَ في ابتغائه المددَ من القسطنطينيةِ على الحبشة. فبعدَ أن وَعَدَهم بمنافعَ تُجنى على يدِ اليهودِ تفوقُ منافعَ أبرهة والحبشة أجابَه الامبراطورُ بقولِه، كما جاء على لسانِ المسعودي :

«أنتم يهود والحبشةُ نصارى، وليس في الديانةِ أن ننصرَ المخالفَ على الموافقِ».

فصارَ الى ملكِ الحيرةِ الذي قدَّمَه الى عاهلِ الفرسِ كسرى أنو شروان (٥٣١،٥٧٩) الذي حاربَ يوستنيانوس واحتلَّ انطاكيةَ ولاذق، لكنَّه أجبر على عقدِ مُعاهدةٍ مع الرومِ سنة ٥٥٥ فلبَّاه كسرى بعد الاستجارةِ وأرسلَ لغوثِه ثماني مئة محاربٍ في سنة ٥٧٥ م فدحروا الاحباشَ. وبعد هذا الإنتصار أمستْ هذه القصةُ نموذجاً للفروسية. فَمَدحهُ أميةُ بن أبي الصلت ذلك الشاعرُ من رؤساء ثقيف وفصحائهم، ثم قُيِّضَ لهذه القصةِ في مصرَ أنْ تُهَذَّبَ بين القرنين ١٤ و ١٥ فراجت في الأوساطِ العربية. وهكذا اتخذت المدائنُ الى التوسع في الجنوبِ العربي وسيلةً مما رأته من مؤازرةِ اليهود لمصالحِ أمَتِها، فجعلوا اليمن إيالةً خاضعةً لسلطانِها ، ففقهَ العربُ جليةَ الأمرِ، ولكنْ بعدَ أنْ أنزلوا نكسةً قويةً بالمسيحيةِ في الجنوبِ العربي.

رغمَ ذلك بقيت المسيحيةُ حيةً في مستوطناتٍ عديدةٍ حتى مجيء النبي محمد الذي عاملَ المسيحيين بالحُسنى. والظاهرُ أنَّ كنيسةَ نجران ثبتتْ ولم تسقطْ فأرسلت وفداً مسيحياً يفاوضُ النبيَّ محمد. فسيرةُ ابن هشام تذكرُ حادثةَ ستين راكباً من نصارى نجران وفدوا الى محمد أثناءَ جدلِه مع اليهود. من بين هؤلاءِ المسيحيين أميرهم عبد المسيح وابو حارثة بن علقمة اسقفهم وإمامهم وصاحب مدارسهم واسقف اخر ، وهناك أقاموا الصلاةَ وكلّموا النبيَّ فدعاهم النبيُّ الى الاسلامِ فقالَ له الحبران قد أسْلمنا قبلك، فأجابهما بأنَّ دعاءَهُم لله ولداً

يمنعهما من ذلك. فسألاه من هو أبوه؟ فصمتَ ولمْ يُجبهُما.

لكنَّ نجرانَ الجديدةَ انتقلت بعد الإسلامِ الى بلادِ ما بين النهرين وذلك في اواخرِ القرنِ الثامنِ الميلادي.

الفصلُ الثاني:

القبائلُ والمواقعُ المسيحية في الجزيرة:

لمَّا كان السوادُ الأعظمُ ممن قطنوا قلبَ الجزيرةِ ينتمون الى نصف بدواة، فلم يبقَ لنا الكثيرُ من مساهماتِهم في التاريخ الثقافيِّ والحضاريِّ. فما تركوه لنا يبقى ضئيلاً إذا ما قيس بحضارة جيرانهم الأنباط والتدمريين والغساسنة واللخميين.

لقد كان تاريخُهم في غالبه سجلاً للغارات والمناوشات نشأت تنازعاً على الماشيةِ والمرعى والمياه. لكنَّ ذلك لا يعني أنَّ القيمَ الانسانية لم تتجسد في شعرِهم وأدبهم، لأنَّ حراثتهم المعنويةَ للحضارة وبلوغَهم المستوى الثقافي الذي يلائمُ وضعَهم البيئوي أتاحتا لهم استساغةَ القيمِ الفكرية الانسانية.

إنَّا لا ننسى الدورَ الذي مثَّلته الجزيرةُ كمحطةٍ للاتصالات والعلاقات التجارية، خصوصاً في منطقة الحجاز. فالحجازُ إقليم في الجزءِ الغربيِّ من جزيرةِ العربِ يقعُ على سواحلِ البحرِ الأحمر. وهو كناية عن أرضٍ مستطيلة ذات حدودٍ غيرِ ثابتة تمتدُ من خليج العقبةِ مروراً بتهامة أراضي السهلِ الساحليِّ الضيِّق المُمتدِ من الشمالِ الى أطرافِ اليمن جنوباً. ينبسطُ الحجازُ شرقاً في هضبةِ نجد الفسيحةِ التي تنحدرُ من الغربِ الى الشرقِ حتى تتصلَّ بأرضِ العَروضِ وهي بلادُ اليمامةِ والبحرين.

كانت تهامةُ ممراً للقوافلِ التجاريةِ بين سوريا والعراق وعمان والبحرين من جهة واليمن والحبشة من جهةٍ اخرى. ولذلك أصبحت مواقعُهم السكنيّة مراكزَ تجارية واقتصادية. فالخطوطُ التجاريةُ للطيوبِ القديمةِ كان يمرُّ أهمُّ فروعِها بالحجازِ. وكذلك لا ننسى النشاطَ البحريَّ التجاريَّ بين الحجاز وبلادِ الحبشةِ.

عربُ الشمالِ هم العربُ العدنانيون الذين عاشوا في معيشةٍ صحراويةٍ بدويةٍ تعتمدُ رعيَ الإبلِ والأغنام. فلم تهيءْ لهم الحياةُ في إستقراراً وثباتاً، الا في الواحاتِ وأمكنة الزرعِ والماءِ. والدلائل تشيرُ الى أنّهم لم يجتمعوا في وحدةٍ سياسيةٍ تجمعُ شملَهُم، لأنَّ الطبيعةَ دفعتهُم الى التشتّتِ والتفرّقِ والإنقسامِ، مما يجعلُ التأريخَ المنهجيَّ المتسلسلَ لإحداثِ المسيحيةِ مُحالاً. ما يمكنُ أنْ نتلمَّسَه في المجّةِ التاريخيةِ هو اقتفاءُ أثرِ القبائلِ والمواقعِ التي أقاموا فيها.

كشفتِ النقوشُ الآراميةُ في تيماء على قيامِ مستعمرةٍ آراميةٍ تجاريةٍ في القرنِ الخامسِ ق.م. وكان للمعينيين مستعمرة في العُلا شمالي الحجاز تُسمى معين مصران. كان سكانُها من عربِ الجنوبِ فنقلوا اليها تجارتَهم. ثم نشأت دولةُ النبط في سلع بطرا فاهتموا بنقلِ تجارةِ الجنوبيين الى الشامِ ومصر.

ولما قضى عليهم الأمبراطورُ تريان ١٠٦ م حلّ محلَّهم اللحيانيون وهم فرع من هُذيل كانوا يقيموت في دادان. عاد عربُ الجنوبِ الى الظهورِ في مملكةِ تدمر شمالي الشام في القرنين الثاني والثالث للميلاد، بحيث أنّها كانت من أهمِّ المدنِ التجاريةِ في المنطقةِ لموقِفها الحيادي من الصراع الفارسي الرومي. ومع ذلك كانت للقبائلِ المتحالفةِ إما مع الروم أو الفرس الأثرُ القويُّ في الحجاز. فمن الحيرةِ انتقلت المؤثراتُ الفارسيةُ اليها ومن أرضِ غسان انتقلت المؤثرات الرومية أيضا.

أما المؤثراتُ الأقوى في داخل الجزيرةِ وبالتالي في تاريخ المسيحيةِ فهي الوثنيةُ واليهوديةُ اللتان سنتناولهما عرضاً موجزاً قبيل استعراضِ أسماءِ القبائلِ المسيحيةِ والمواقع المسيحية في الجزيرة.

الوثنيةُ في وسطِ الجزيرةِ وشمالِها:

ولإهلِ المراكزِ الاساسيةِ علائقُ وثيقة بالوثنِ ترجحُ على المناطقِ الأخرى في الجزيرةِ بالتأثيرِ في حياةِ الناسِ نظاماً وقانوناً. فما جئنا به في مطلع الكتابِ من ذكرٍ للوثنيةِ العربيةِ غلبَ في سيادتِه المناطقَ الشمالية، وكأنَّ الوثنيةَ اتخذتِ الحجازَ موئلاً.

إنَّ الإصطنامَ إيمان بكائناتٍ غيبية، يقودُ الى التوثّنِ والقيامِ بطقوسٍ وعباداتٍ لمادةٍ يظنونها حلولاً للغيبياتِ. فعندهم أنَّ وراءَ كلِّ حركةٍ أو ظاهرةٍ قوة غيبية تسيّرها.

ومعَ أنَّ للفردِ في الوثنيةِ أهميةً كبيرةً، فالوثنُ هو للقبيلةِ كلّها يحميها ويصونُ كافةَ أفرادها. فالإلهُ الصنميُّ يحمي القبيلةَ ويذودُ عنها، وقد تلجئُه حربُ القبيلةِ الى مقاتلةِ آلهةِ القبائلِ المتصارعةِ معها. وفي اختلاطِ القبائلِ تتمازجُ آلهتُها، فتتغيرُ صفاتُ ذلك الإلهِ الإصليِّ، ويُطلقُ عليه اسمان، وينسبُ اليه نسلٌ من اخوةٍ واولادٍ. وهكذا وصلوا الى اشراكٍ يقولون فيه بتعددِ الآلهةِ واثباتِ الندِّ لآلهِ القبيلةِ الأصليِّ.

وهكذا جعلَ أهلُ الحجازِ للّهِ انداداً، وأقاموا له من عبادِه جزءاً، فكانت المادةُ الجامدةُ في مستوى اللهِ عزَّ وجل. في التاريخِ الوثنيِّ هناك نزعتان صنميتان:

الآحيائية وهي النزعةُ القائلةُ بوجودِ روحٍ في كلِّ مادةٍ.

الأثرية أو التيميّة وتُعرفُ أحياناً بالبدّيّة وهي نزعة تقولُ بحلولِ الحياةِ في الجماداتِ. فالبدودُ أو الآصنامُ هي من النوعِ التيميِّ، أي من النوعِ الذي تُتيمُ الجمادَ إتامةً.

ولقد وصفت المصادرُ الوثنيةَ العربيةَ بأنها بدّيّة أكثر منها إحيائية، لكنَّ التحديدَ الدقيقَ لنوعِها يبقى امراً عسيراً على الباحثِ.

وما جاءَ في القرآنِ الكريمِ لدليل على الوثنيةِ القائمةِ في الحجازِ. فالجبتُ والطاغوتُ هما من أولياءِ الذين أقاموا على الوثنيةِ، كانوا يستقسمونهما ويحتكمون اليهما.

كان هبل أعظمَ أصنامِ قريش ، وكان على بئرٍ في جوفِ الكعبةِ تُجمعُ فيه الهدايا .أما اساف ونائلة فنُصب أحدُهما على الصفا والآخر على المروة، فيما بعد جُعل أحدهما بمحازاةِ الكعبةِ والآخر في موضع زمزم يتمسح بهما كلُّ من طافَ بالكعبةِ. وتذكرُ المصادرُ عدداً كبيراً من أصنامِ مكة منها : نهيك ومطعمُ الطير، ومناف وقزح وغيرها. كنا أوردنا في المقدمةِ عدداً آخر من الأصنامِ في مكة وخارجها. لكنَّ ابن الكلبي ذكرَ عدةَ آلهة أخرى منها :

ذو الكفين لبني منهب بن دوس.

رضا وكان بيتاً لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة.

سعد وكان صخرةً طويلةً بساحلِ جدة كان لمالك وملكان ابني كنانة.

الاقيصر وهو لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان .

نهم كان لمزينة وبه كانت تُسمى قبيلةُ عبد نهم.

عائم لأزد السراة.

سعير لعنزة.

عميناس لخولان .

جهار لهوزان .

محارب بعكاظ .

ضمار لبني سليم .

وآلهة اخرى عديدة مثل اوال ، وذو الرجل وحلال وعبعب .

كلُّ ذلك يشيرُ الى كثرةِ الأصنامِ والأنصابِ التي كان أهلُ الحجاز يقدمون عليها الذبائح والضحايا والتقادمَ التي تسيلُ دمائها في كهفٍ أو حفرة تُسمى الغبغب. ولما كان الإلهُ مقدّسا، فإنَّ الأماكنَ والأشياءَ التي حوله مقدسة أيضاً. لذلك عُدّت هذه الأماكنُ حرماً بنوا فيها بيوناً مقدسة انتشرت في الحجاز أهمها:

الكعبة.

بيت العزى .

بيت اللآت .

كعبة سندان .

بيت رئام .

السعيدة .

ذي الكعبات.

بساء .

ولمَّا كانت الآلهةُ تستقرُ في معتقدهم في أماكنِ العبادةِ وجب لأهلِ الوثنِ عليها الحجُ وفقَ شعيرةٍ معيّنة. لكنَّ هذه الشعيرةَ تتطلّبُ أناساً تدرّبوا على التوسّع في علمها، عُرفوا بالسدنةِ أو خدامِ أماكنِ الحجِّ. أما الكهّانُ فادّعوا معرفةَ الغيبِ والقيامَ بالأعمالِ الخارقةِ بقوةِ شيطانٍ يوحي اليهم بذلك. وكانت العربُ تطلبُ منهم المشورةَ وخاصةً قبلَ الحملاتِ على القبائلِ الأخرى وتتحاكمُ اليهم وتتداعى.

اليهوديةُ في وسطِ الجزيرةِ وشمالِها:

وأهمُ من يهودِ الجنوبِ العربيِّ يهودُ الحجاز، وكانوا قبائلَ كثيرة انتشرت في واحاتِ الحجاز:

يثرب .

خيبر .

وادي القرى .

تيماء .

أهمّ مركزٍ لهم كان في يثرب ، فكانت منهم عشائرُ كثيرة:

بنو النَّضير : وهؤلاء الذين نكثوا عهدَهم مع النبيّ.

بنو قريظة: هؤلاء تحالفوا مع القرشيين فنكثوا أيضا عهدَهم مع النبيّ.

بنو قينقاع: هؤلاء أيضا حاصرَهم النبيُّ وغلبهم.

بنو بهدل وغيرهم .

وفي المصادرِ ما يدلُّ على أنّهم كانوا يتدارسون دينَهم في دارِ ندوةٍ لهم تُسمى المدارسَ وأنهم كانوا يقرأون التوراةَ والمشنةَ والزبورَ بلغتِهم، ولكنّهم أحسنوا العربيةَ أيضا فاستخدموها في لغتِهم اليوميّة، وفي أدبِهم العربيّ.

ففي طبقاتِ الشعراءِ لمحمد ابن سلاّم الجُمَحي باب خاص باليهودِ من شعراء المدينةِ وأرباضِها. وجاءَ في كتابِ الأغاني لأبي الفرج الأصفهانيّ عرض لعددٍ من شعراءِ اليهودِ الذين قرضوا الشعرَ بالعربيةِ. فاشتهرَ بينهم غيرُ شاعرٍ كالسموألِ بن عادياء صاحب الأبلق قرب تيماء .

هذا الوجودُ اليهوديُّ القويُّ في الحجاز، خلّف آثاراً في البيئةِ العربية وخاصةً في البيئةِ المسيحيةِ الحجازية.

وهكذا كانت المسيحيةُ في الحجازِ محاطةً بمؤثراتٍ منبعثةٍ من مصادر بيئويةٍ ووثنيةٍ ويهوديةٍ وسياسيةٍ صاغت تاريخها صياغةً خاصةً جعلتها متقولبةً مع بيئةِ الجزيرة العربية.

انتشارُ المسيحيةِ:

وردَ في سيرةِ النبيِّ لابنِ هشام أنَّ وصولَ النصرانيّةِ الى قلبِ الجزيرةِ تمَّ على من بعثه عيسى بن مريم من الحواريين وهو ابنُ ثلماء. ولعلّه برثلماوس الذي اتّجَهَ الى الاعرابيةِ. ولقد ذكرنا في الفصلِ السابقِ أنَّ هذا الحواري يُفترض أنّه بشَّرَ الجنوبَ العربيَّ، استنتاجاً من تسميةِ الجزيرةِ العربيّةِ ببلادِ الهند. وما أوْرَدَه ابنُ هشام هو تأكيد آخر لهذا الإستنتاج.

ولمَّا كان الأحباش يحتلّون ساحلَ الجنوبِ الغربيِّ من البحر الأحمرِ نشأت بينهم وبين المكيين صلاتٌ تجاريةٌ قويّةٌ. ولمَّا استطاعوا أن يوطدوا حكمَهم في اليمن، تحقيقاً لما ذكرنا في الفصلِ السابقِ، فإنّهم وصلوا الحجازَ حتى أبواب الكعبة. فأقامت جاليةٌ حبشيةٌ فيها لعلّها مسيحية دُعي أفرادُها بالأحابيش.

ومن جهةٍ أخرى، انتقلت مؤثراتٌ شماليةٌ الى الجزيرةِ عن طريقِ بلادِ العربِ الفارسيةِ وعاصمتها الحيرة. وقد تكون هذه المؤثراتُ في معظمها نسطورية نقلتِ المسيحيةَ المتنسطرةَ الى قلبِ بلاد العربِ الوثنيةِ اليهوديةِ. ولعلَّ تنصُّرَ تغلب وجيرانِها من بني بكر ابن وائل في الشمالِ كان من أثرِ هذا المدِّ الحيريِّ.

كما كان للغسانيين أثرٌ ظاهرٌ على عربِ الجزيرة، فهؤلاء استطاعوا أن يجعلوا الجزيرةَ على اتصالٍ بسورية والقسطنطينية. وهذا ما كفلَ للمسيحيةِ أن تعرف انتشاراً وشيوعاً في الشمال.

وبسببٍ من موقعِ الشمالِ التجاري فإنَّ عدداً كبيراً من التجارِ المسيحيين استقرّوا فيها مقيمين علاقاتٍ تجاريةً مع كبرى القبائلِ الحجازية، كقبيلةِ قريش.

إنَّ قضيةَ المسيحيين في الشمالِ تعودُ الى تغايرٍ في المنشأ، والى تكاثرِ التأثيراتِ الخارجيةِ، والى تعددِ الفرقِ المسيحيةِ والنحلِ، وعلى رأسِها النحلة النسطورية.

ولمَّا لم تستطع الكنيسةُ أن تسوسَ القبائلَ وتتولى أمورَها الروحيّةَ فقد داخلتها في المعتقدِ والممارسةِ خواصٌ تختلفُ في جوهرِها عن الأصولِ المسيحيةِ. فبعضٌ منهم اشتركَ في الحجِّ الى الكعبةِ مع مواطنيهم الوثنيين، لأنَّ أداءَ الفريضةِ الوثنيةِ كان إلزاماً يفرضُه المكيّون لدوافعَ ماديّةٍ وتجاريةٍ. وبعضُهم خلطَ المسيحيةَ باليهوديةِ، وبعضُهم خلطها بتفكيرِ المارقين المبتدعين من النساطرة.

القبائلُ المسيحية:

أهمُّ القبائلِ المسيحيةِ في الشمالِ هي:

١ قبيلة بكر.

٢ قبيلة تغلب.

٣ قبيلة بنو إياد.

٤ قبيلة بنو تميم.

٥ قبيلة بنو قضاعة.

١ ـ إنَّ قبيلتي بكر وتغلب ترتبطتان بصلةِ القرابةِ والنسبِ. فقبيلةُ بكر هي وتغلب ابنا وائل الذي كان جدهُما الأعلى. ويعودُ نسبُهما الى ربيعة بن نزار بن عدنان، ويُقالُ لمساكنِهما ديار ربيعة قبلَ أنْ تقطنَ قبيلةُ بكر ديارَ بكر. لقد ضربوا خيامَهم انطلاقاً من اليمن وتهامة جنوباً حتى يمامة والبحرين شرقاً وبلاد ما بين النهرين شمالاً. في آخرِ المطافِ استقرت بعضُ بطون هذه القبيلةِ في ديارِ بكر التي حملت اسمَهُم. لقد كانوا حلفاءَ المنذرِ الثالثِ وابي قابوس. كانت هذه القبيلةُ تدين بالنصرانيةِ مع قبيلةِ تغلب.

٢ ـ أمَّا قبيلةُ تغلب فهي من نجد والحجاز وتهامة. أقامَ قسم منهم على جزرِ الفرسانِ في البحرِ الأحمرِ قبالةَ مرفأ تهامة حيث مارسوا صيدَ اللآلىء، وأقاموا علاقاتٍ تجاريةً مع الأحباش. في العصورِ البعإسلاميةِ انتقلت الى الجزيرةِ الفراتية، وعَبَرَ بعض منها الى ما وراء دجلة. لكنَّها، عامةً، اشتهرت بشدةِ البطشِ وكثرةِ المفاخرِ.

دارت بين هاتين القبيلتين حرب دامت أربعين سنةً، وذلك ابتداءً من أواخرِ القرنِ الخامسِ حتى الربعِ الأولِ من القرنِ السادس (٥٢٥م). ذكرَ المؤرخون في تعليلِ نشوبِها أنَّ كُليباً سيدَ تغلب قتلَ ناقةً لامرأةٍ عجوزٍ تُدعى البسوس فدارتْ رحى الحربِ تستفزُّها أقوالُ الشعراءِ الحماسية. أشهرُ هؤلاءِ الشعراءِ:

من بني تغلب:

كليب ابن ربيعة(ت حوالي ٩٢) وهو سيدُ بني ربيعة، لكنَّه كان أول قتلى حرب البسوس. فرثاه أخوه المهلهل وطلبَ ثأرَه السنين الطوال.

المهلهل (ت حوالي ٥٣٠) وهو لقبُ عدي بن ربيعة. هو خالُ امرؤ القيس. تدورُ الكثرةُ الكُبرى من قصائده على محورِ الحماسةِ والرثاء، لانَّه كان بطلاً من أبطالِ حربِ البسوس، ولانَّه قال في أخيه القتيل أكثرَ شعره. عُرِف بالمهلهل لانه كان أول من هلهلَ الشعرَ أي رقّقه. لُقّبَ أيضا بالزير بطل قصة الزير الشهيرة.

من بني بكر:

جساس ابن مرة: (ت حوالي ٥٣٥). كان أيضا بطلاً من أبطالِ حرب البسوس. وهو الذي قتلَ كليب وائل، فكان سبباً لنشوبِ هذه الحربِ الطاحنة. فقاتل كليب بن ربيعة سيد التغالبة، لكنَّه قُتل في أواخرِ الحرب.

٣ ـ بنو إياد: وهي قبيلةٌ عربيةٌ من مَعَدّ. غلبت في حروبِها مع ربيعة ومُضَر فنزحت من الحجازِ الى العراق. وهناك خدم بنو إياد مع اللخميين لمصلحةِ الفرسِ، لكنَّهم تحالفوا مع القسطنطينية بعد ترحالِهم الى الموصلِ وتكريت فهُزموا على يد بني بكر فتفرقوا في مناطق مختلفة. وقد تنصَّروا، فعُرف منهم العديدُ من الشعراءِ والخطباءِ، أهمّهم:

قس بن ساعدة الذي يُضرب به المثلُ في البلاغةِ والحكمةِ والموعظةِ الحسنة. سُقّف على نجران، لكنَّ بعضَهم يقول إنه سُمّي خطأ أسقف نَجران. قيلَ عنه إنَّه كان يخطُبُ في الناسِ مزهّدا إياهم في الدنيا.

٤ ـ بنو تميم: إنهم من عربِ الشمالِ. بطن من الياس بن مضر، ويرجع اسمُهم في الغالبِ الى الجدِّ الأولِ الذي تنتسبُ اليه. عاشوا في القرنِ السادسِ على هضبةِ نجد وأحياناً

بالقرب من البحرين. اعتنقوا المسيحية وتحالف بعض منهم مع بني عباد في الحيرة.

في القسمِ الأوسطِ من الجزيرةِ في شرقيِّ الحجازِ وبالتحديدِ في هضبةِ نجد كان بعضُ المسيحيين يقطنون بين قبائل من تميم وطي، لكنَّ عددَ المسيحيين فيها كان أقل منه عند بني كندة.

٥_ بنو قضاعة: لقد اختلفَ الرواةُ في نسبِهم. فمنهم من قال إنَّهم يعودون الى ابن مالك بن عمرو ابن مرّة، من حمير، من قحطان. ومنهم من قال إنَّهم ينتسبون الى عمرو بن معدّ بن عدنان. ومهما يكن الامر فإنَّهم نزلوا بين جدّة وذات عرق ثمَّ تفرقوا فأقاموا في وادي القرى والحجر، وأطرافِ الشامِ ونجد. قال ابن خلدون: كان لقضاعة ملك ما بين الشامِ والحجاز الى العراق. وهم قبائل وبطون منهم بنو صالح الذين تحالفوا مع الروم لحراسةِ باديةِ الشام، وبنو كلب الذين خلفوا الغساسنة، وبنو قين الذين أقاموا في شبهِ جزيرةِ سيناء وفي شمالي الاردن، والتنوخيون.

<u>المواقعُ المسيحيّةُ:</u>

<u>مكة:</u>

هي عاصمةُ الحجازِ ومركزٌ تجاريّ وثقافيّ هامّ. تقعُ على بعدِ ٨٠ كم شرقِ البحرِ الأحمرِ في وادٍ غيرِ ذي زرعٍ تُحيطُ به الجبال. وهي تتراءى لنا مُمسِكةً بزمامِ القوافلِ التجاريّة، كما تتراءى لنا أكبر مركز ديني للوثنية. يُقال إنَّه كان يسكنُها قديماً قبائلُ من جُرهم وبقايا من الإممِ البائدةِ، ثمَّ نزلتها قبيلةُ خزاعة اليمنيّة حين هاجرَ كثير من القبائلِ

اليمنيّة الى الشمالِ، ولعلّها نزحت اليها لتسيطرَ على المركزِ التجاريِّ المهمّ. ولا نصلُ الى منتصفِ القرنِ الخامسِ حتى يظهرَ بها قصيّ ومعه قبيلة قريش فيستولي عليها ويخرجُ منها خزاعة. بعد الغزو الحبشيِّ للجنوبِ العربيِّ تحولت أفئدةُ الوثنيين اليها. ولما فشلت حملة أبرهة عليها سنة ٦٧٠ أو ٦٧١ عدّها الوثنيون رمزاً لاستقلالِهم وعزّتِهم. لذلك اشتهرت مكةُ بكعبتِها التي كانت مثابةً للناسِ في ما قبل الإسلامِ، لأنَّ الإلهَ هبل المنصوبَ في جوفِ الكعبةِ على صورةِ إنسانٍ، يدُه اليمنى مكسورة، كان معبودَ العربِ يُمطِرُ الأرضَ وينصرُ النّاس.

إنَّ التصادمَ المُستمرَّ بين الفرسِ والرومِ هيّأ لمكةَ أن تزدهرَ بها التجارةُ، فهبطت فيها أكثرُ تجارةِ الجنوبِ، خصوصاً عندما كان الطريقُ بين العراقِ والشامِ مُقفلا. فمكةُ أمست بيت تجارةِ العرب يُقيمون فيها أسواقَهم التجاريّةَ كسوقِ عُكاز ومجنّة وذي المجاز. فلم تكنْ أسواقُها أسواقاً تجاريّةً فحسب، بل أسواقاً أدبيّةً أيضا هيأت لحركةٍ أدبيّةٍ واسعةٍ.

بسببٍ من موقعِها الجغرافيِّ والدينيِّ والتجاريِّ ترددَ الناسُ اليها من كلِّ حدبٍ وصوبٍ، ومن بينهم التجارُ المسيحيّون. لكنّ السكانَ المسيحيين الأصليين كانوا قلةً، فمعظمُهم كانوا من الأحباشِ جاؤوا الحجازَ للقيامِ بالخدماتِ والأعمالِ التجاريةِ والإجتماعيةِ. فكان الرقيقُ الحبشيُّ الذي تزخرُ به مكة نصرانياً. وكان بها كذلك جوارٍ روميات مسيحيات. ويظنُّ بعضُهم أنَّ جاليةً من الرومِ النصارى أقامت في مكة.

يقولُ ابن هشام إنَّ شماساً زار مكة في الجاهليةِ. والسيرةُ الحلبيةُ تقولُ إنَّ راهباً مسيحياً كان يعيشُ في مرِّ الظهران.

وردَ في بعضِ النصوصِ أنَّ بعضَ رجالِ الدين والرهبان جاؤوا مكةَ مبشّرين، ومنهم من كانَ يقومُ بالتطبيبِ، غيرَ أنَّ التوجيهَ الدينيَّ بقيَ ضعيفاً، مما أفقدَ المسيحيّةَ بعضَ فاعليتِها في المكيين. ومع ذلك برزَ عدد من العلماءِ المسيحيين بينهم ورقة بن نوفل (ت ٦١١) وهو ابن عم خديجة أولى أزواج الرسول محمد. كان ورقةُ إمامَ المسيحيين ورئيسهم يقيم الصلاةَ في كنيسةِ مكة النصرانية زمن عبد المطلب وزمن النبي محمد. روى اليعقوبي الجغرافي والمؤرخ (ت ٧٩٨) أنّه تنصرَ واستحكمَ في النصرانيةِ وقرأ الكتبَ وماتَ عليها. روي أنّه

ترجمَ الإنجيلَ الى العربية، فشاعت ترجمته بين المسيحيين العرب.

وهناك أميّة ابن أبي الصلت (ت نحو ٦٣٠) وهو شاعرٌ جاهلي من رؤساءِ ثقيف وفصحائهم. وكان من النساكِ الذين نبذوا الأوثانَ ووصفوا الكمالاتِ الإلهية.

عبيد الله بن جحش الذي هاجرَ الى الحبشةِ واعتنقَ المسيحيةَ هناك.

وعثمان بن الحويرث الأسدي الذي لجأ الى قيصر وتنصَّرَ.

وعتبةُ بن أبي لهب. وزيد ابن نفيل الذي اعتزلَ الأوثانَ، لكنَّ خبرَ اعتناقِه المسيحيةَ يبقى غير مؤكد.

ويشيرُ حسان بن ثابت في رثائِه للرسولِ محمد الى وجودِ بعضِ المسيحيين في مكة. وكذلك يشيرُ عديُّ بن زيد التميميُّ الى الصليبِ في مكة فيقول:

سعى الأعداءُ لا يألون شرّاً
عليَّ وربِّ مكة والصليبِ

أما ما رُسمَ على جدرانِ الكعبةِ من صورِ الأنبياءِ والحواريين دليلٌ على مدى تأثيرِ الوجودِ المسيحي في مكة. فكتابُ محمد بن عبد الله الأزرقي (ت ٨٥٤ م) (أخبار مكة) يحوي معلوماتٍ عن الوجودِ المسيحيِّ في مكة وتفاصيلَ عن وضعِ الرسولِ ليديه على ايقونتي يسوع وأمِه عندما طلبَ الى أتباعِه ومشايعيه أن يمحوا باقي الصور المقدسة.

كان النبيُّ نفسُه يُصغي الى خطباءِ المسيحيّةِ الذين كانوا يَدينون الوثنيةَ ويَدْعون الناسَ الى الحقِّ. وقد وردت في سيرِ النبيِّ محمد أسماءُ شخصياتٍ مسيحيّةٍ تدلُّ على انتشارِ المسيحيةِ في مكة قبلَ الدعوةِ الإسلاميةِ، منهم:

جبر عبد لابن الحضرمي،

وعدّاس النصراني من أهل نينوى،

وسليمان الفارسيّ الذي مرّ بكنيسةِ النصارى فأعجِبَ بصلاتِهم ورغبَ في أمرِ المسيحيةِ حتى قصدَ دمشقَ يتتلمذُ لعلماءِ المسيحيةِ وشيوخِها. ولعلّه هو الذي أشارَ على النبيِّ بحفرِ الخنادقِ حولَ المدينةِ وتحصينِها.

والأسقفُ طغاطرُ أحدُ أساقفةِ الباديةِ تجمّلَ رقاً ووداً وثبّت إيمانَ النبيِّ محمد بما أوتي عيسى وأنزلَ عليه وتسبّغ السلامَ على من اتّبعَ الهُدى.

أيلة:

إنّ أيلةَ تلك المدينة عند خليج العقبةِ التي أحياها الرومانُ والواقعة في شمالي الحجازِ كانت تقع على خطٍ تجاريّ مهم. هذه المدينةُ كانت مسيحيةً في معظمِها قبل الدعوةِ الإسلامية. تذكرُ السيرةُ لابنِ هشام كما يذكرُ المسعوديُّ أي علي بن الحسين (ت ٩٥٦) المؤرخُ والرحالةُ والجغرافيُّ أنّ النبيَّ أقامَ في تبوك على حدودِ غسان عند حملتِه ضدَّ جيشِ الرومِ حاميةً فوجّهَ رسالةً الى يوحنا بن رؤية صاحبِ أيلة، فقدِمَ على محمد وعلى صدرِه صليب وصالحَ محمداً على جزيةٍ يدفعُها كلَّ عام. فأمّنه محمد بكتابٍ موجه اليه. لقد صالحه النبيُّ محمد لأنّه لم يلقَ كيداً. تنقلُ سيرةُ ابنِ هشام صورةَ كتابِ الرسولِ الى يوحنا وأهلِ أيلة واليمن وأهلِ البحر.

جزيرةُ تيران:

كانت هذه الجزيرةُ الواقعةُ في خليج العقبةِ مركزاً تجارياً مهماً. وقد تراكزت المسيحيةُ فيها في القرنِ الخامسِ الميلادي حتى أمست كرسياً حبريّاً. فمثّلها حبرٌ في مجمع اورشليم سنة ٥٣٦ م.

دَوْمَة الجَندَل

هي واحةٌ وبلدةٌ في جوفِ سرحان أي في الوادي الذي يجري في نجد والذي كان طريقَ القوافلِ بين العراق وسورية وبلاد العرب. نزلها بنو كنانة. أطلقَ عليها الأقدمون لفظةَ أدومو وعُرفت بقلعةِ بلاد العرب. ولقد بلغت شأوا عظيماً على عهدِ الفتوحات الإسلاميةِ.

لمَّا اقامَ النبيُّ محمد في التبوك بعثَ خالد بن الوليد لغزوها سنة ٦٢٥ م فأسرَ عاملَها الأكَيدر ابن عبد الملك الكندي الذي كان ملكاً نصرانياً عليها، مما يدلُّ على أنَّها كانت نصرانيةً قبل الدعوة الاسلامية. فحقن الرسولُ دمَه وصالحه على الجزيةِ. وفي اوائلِ فتوح فارس ٦٣٣ م انحازَ أهلُ دومة الى الفرسِ فمضى اليهم خالدُ بن الوليد فاسفرتِ المعركةُ عن أسرِ الأكَيدر بعد أن فاجأه خالد وهو يطاردُ بقرَ الوحش. هناك نصوصٌ تشير الى قتلِ الأكيدرِ في المعركة.

معان:

وهي مركزٌ تجاري مهمٌ تقع تلقاءَ الحجازِ من نواحي البلقاء على مقربةٍ من البتراء. كانت إحدى المستعمراتِ المختصةِ بنقلِ البريدِ وبايداع البضائع فيها.

عاش أهلُها المسيحيون تحتَ حكمِ الرومِ على غرارِ القبائلِ التي قطنت شماليَّ الجزيرة. عند ظهورِ الإسلامِ كان يملكُ عليها فروةُ بن ابي عامر شيخُ بني جزّام.

تيماء

وهي مدينةٌ قربَ واحةٍ في شمالي الجزيرةِ جنوبيّ دَوْمَة الجَندول. بالقرب منها كان الحصنُ المعروفُ بالأبلقِ الذي كان حصنُ الشاعرِ الجاهليّ السمؤال (صموئيل) ابن عادياء ت حوالي ٥٦٠ م. لقد وردَ ذكرُ الواحةِ في العهدِ القديمِ في سفري التكوين (٢٥ :١٥) وأشعياء (١٤:٢١)، لانّها تقعُ على طريقٍ عظيمٍ يربطُ خليجَ العقبةِ والبتراءِ غرباً بالخليج العربيّ شرقاً. تقاطعتها قوافلُ الراحلين من الشامِ الى اليمنِ فصارت محطةً بلغت مكانتُها شأناً عظيماً. اتخذها نبونيد آخرُ ملوكِ الكلدانيين مقراً اقليمياً له.

وعلى حجرِ تيماء نجدُ نقشاً هو من أعظمِ النقوشِ التي كُشِفَ عنها حتى الآن قيمةً. ويرجعُ تاريخُه الى القرنِ الخامسِ قبلَ الميلادِ. وهو مكتوب باللغةِ الارآميةِ وفيه أنَّ أحدَ الكهنةِ استقدمَ الهاً جديداً الى تيماء يُدعى صَلم هَجَم فأنشأ لهيكلِ الإلهِ المعبودِ وقفاً وعَيَّن له كهانةً وراثيّة.

صارت في العهدِ المسيحيّ مركزاً لأهلِ الكتابِ وكان فيها مساكنُ قبيلةِ طيءالمسيحيةِ العربيةِ التي كانت قبيلةً عربيةً جنوبيةً من بطونِ كهلان بن سبأ. هاجرت من اليمنِ الى شمالي الجزيرةِ بعد دمارِ سدِّ مأرب. كانت تيماءُ مركزاً اسقفياً كبيراً.

تَبُوك:

وهي حصنٌ كبيرٌ قربَ واحةٍ كبيرةٍ في شمالي الحجاز بين وادي القرى والشام سَكَنَها بنو قضاعة وجاورهم فيها بنو كلبٍ من قبيلة تغلب النصرانية.

خرج اليها الرسولُ محمد لمقاتلةِ الروم ولإخضاع عربِ الشمالِ فَحَاصَرَها عشرين يوماً. فأقبلَ النصارى يُصالِحونَه فأعطَوه الجزيةَ.

وادي القُرى:

وهو منخفضٌ في الحجازِ على الطريقِ التجاريةِ الى سوريا بين الاعلاءِ والمدينةِ. سَكَنَها أيضا بنو قضاعة وبنو سليح. سياسياً كانوا على صلةٍ بالسلطةِ الروميّةِ، رغم أنهم كانوا في نطاقِ التأثيرِ اللآخلقيدونيِّ المناهض للقسطنطينيةِ. وقد ذكَرَ كتابُ الأغاني عن الرهبانِ الذين أقَاموا بأسفلِ ذي القُرى.

يثرب:

وهي مدينةٌ في الحجازِ شماليِّ مكة. وهي محاطةٌ بالجبالِ إلاّ من الجنوبِ حيث تمتدُ واحة خصيبة. سكانُها الاقدمون هم من العمالقة. لقد كانت مقراً يهودياً لبني قريظة الذين نكثوا عهدَهُم مع النبيِّ محمد وتحالفوا مع القرشيين، ولبني النضيرِ الذين حاولوا اغتيالَ النبيِّ بعد أن حالفوه وأيّدوه، فألقوا سلاحَهم وخضعوا لبني قينقاع الذين حاصرَهُم النبيُّ فرموا سلاحَهُم. ولا شكَّ أنَّ المسيحيين أقاموا فيها حتى وَرَدَ ذكرُهم في الشعرِ العربيِّ، وعلى الاخصِّ في شعرِ حسان بن ثابت الذي اتصل بالغساسنة لكنَّه أسلمَ وصار شاعرَ النبي. وَرَدَ عند النساطرةِ أنَّهم أقاموا اسقفاً على يثرب وشادوا كنائسَ متعددةً فيها.

والحقُّ أنَّ نصارى العرب في الجزيرةِ إنّما كانوا منتشرين في بقاعٍ مختلفة منها. فالمراجع تأتي على ذكر بَشر عبد يشوع القناني الناسك الذي عمّد أهل اليمامة. فكان لاهل اليمامة اسقفية في قطر عام ٢٢٥م. وكذلك ذكر ايليا اسقف سماهيج بين عمان والبحرين سنة ٤١٠م واسقف ديرين من جزائر البحرين سنة ٤٢٠م. لكن قلّما عَرَفْنَا تاريخ المسيحيين العرب المفصّلَ في أقسام الجزيرة، وقد اهتدينا الى بعضٍ من أثارِ وجودِهم من خلالِ أسماءِ القبائلِ والمواقع الجغرافيةِ التي حطّوا رحالَهم فيها.

الفصلُ الثالث:

المسيحيةُ في الإقليمِ العربي:

هؤلاء المسيحيون العرب كانوا يعيشون على حدودِ الجزيرةِ المتاخمةِ لسوريا في إقليمٍ يُدعى الاقليم العربي. لقد أطلق عليهم في النصوصِ اليونانيةِ وعلى كل المسيحيين الساكنين في أطرافِ الجزيرةِ اسم السراكنةِ أو ليمشي كحراسٍ لتلك التخوم.

ولعلَّ سكانَ هذا الاقليم وسكان الحدودِ على أطرافِ الجزيرة جاؤوا تلك البقعةَ انطلاقاً من اليمن في أواخر القرن الأولِ الميلاديِّ مهاجرين واستوطنوا فيما بين النهرين وديار العربِ وجنوب الصحراءِ السوريّةِ.

كانت بعضُ هذه القبائلِ تحالفُ الفرسَ وبعضُها يحالفُ الرومَ لحراسةِ حدودِ هذه الأمبراطوريةِ أو تلك رداً للهجمات البدويةِ المنطلقةِ من قلب الجزيرة.

ومما لا ريبَ فيه أنَّ المسيحيةَ انتشرت في أطرافِ الجزيرةِ العربيةِ منذ العصرِ الرسوليِّ. فبولسُ الرسولُ بعد أنْ كشفَ اللهُ ابنَه فيه ليُبشرَ به بين الوثنيين ذهبَ من ساعتِه الى ديارِ العربِ، (الاقليم العربي) أي الى بلادِ الأنباطِ بعد اضطهادِ الملكِ الحارث له (٢ كور ١١: ٢٣) الذي أمرَ بحراسةِ دمشق للقبضِ على بولس.

وهكذا يكون بولس قد بشَّر اولاً في مملكةِ الأنباطِ، وهم قومٌ من العربِ قطنوا قديماً

جنوبي دمشق على الطرفِ الشماليِّ من جزيرةِ العرب، وكانت قواعدُهم صلخ وبصرى وصلخد والحجر، لكنَّهم اتخذوا مدينةَ البتراءِ عاصمةً لهم لحصانتِها.

جغرافياً، شملَ هذا الإقليمُ كلَّ ما وقعَ بين وادي الحسا في الجنوبِ واللجا في الشمالِ وبين بحرِ الميتِ والأردن من الغربِ حتى أطرافِ البادية في الشرق. كانت مدينة بُصرى عاصمةَ الاقليمِ العربيِّ في أيام تريانُس ١٠٦ م لانَّها كانت مركزاً هاماً للقوافلِ.

في عهدِ الامبراطورِ الرومانيِّ الكسندر سفيروس (٢٠٨ و ٢٠٥، ٢٣٥) المولودِ في عرقة من بلاد عكار اللبنانية أصبحت المدينةُ مستعمرةً كبيرةً.

أما الامبراطورُ فيليبّس العربيُّ (٢٤٤، ٢٤٩) فاهتمَّ بمدنِ الاقليمِ العربيِّ وجعلَ بصرى المدينةَ الأمَّ في ذلك الاقليم. وتأكيداً لما جاءَ على لسانِ المؤرخ افسافيوس فإنَّ هذا الامبراطورَ المولودَ في الإقليمِ العربيِّ كان نصرانياً وأنَّه في عشيةِ الفصح شاءَ المشاركةَ في الصلاةِ مع جمهورِ المصليّن، لكنَّ إمامَ الصلاةِ (ولعلَّه الوليُّ بابيلا) مانَعَه في الدخولِ الى بيتِ الله. فقامَ في العلنِ يعترفُ بما اقترفَ من آثامٍ وجعلَ نفسَه في عدادِ التائبين. فقبله الإمامُ بعد أن أظهرَ فيليبّس أنَّه من المتقين الحقيقيين الذين يرهبون اللهَ.

في هذا الإقليمِ انتشرتِ المسيحيةُ في امتدادٍ واسعٍ فتوزَّعت في مدنِه حتى أمسى معظمُها من أهمِّ مقارِّ شيوخِ الكنيسةِ وأحبارِها.

جاءَ في التقليدِ الكنسيِّ أنَّ يوسي، أخا يعقوب ويهوذا، أزجى الى أهلِ درعا الخبرَ المسيحيَّ السَّارَ وأنَّه ضحَّى بالنفسِ ذوداً عن الإيمانِ، وأنَّ يوسفَ الراميَّ الذي كان عضواً في مجلسِ اليهودِ وتتلمذَ ليسوع وأنزلَه عن الصليبِ ووضَعَه في قبرٍ محفورٍ في الصخرِ، بشرَّ في أطرافِ الإقليمِ العربيِّ.

يقولُ الكاتبُ الرومانيُّ والشيخُ الشهيرُ هيبوّليتس (نحو ١٧٠، ٢٣٥) في مؤلَّفِه

(الحواريون السبعون) إنَّ أحدَ السبعين ويُدعى تيمون بَشَّرَ أهلَ الإقليمِ العربيِّ بالمسيحيةِ. ولقد قرنَ الكاتبُ اسمَه باسمِ حننيا الذي لجأ اليه بولس بعد المكاشفةِ الالهيةِ له على طريقِ دمشق وقبلَ منه المعموديةَ.

ويضيفُ هذا الكاتبُ الرومانيُّ في كتابِه (معرضُ النظرياتِ الفلسفيةِ) حادثةَ العرفانيِّ مونئيم (ربّما منعم) الذي عاش في القرن الثاني في الإقليمِ العربيِّ وكان من أتباعِ تتيان السوريّ. وبسببٍ من عرفانيتِه قال بطيفيةِ التجسدِ وبنزعةِ التفتيشِ عن اللهِ داخلَ الذاتِ. فاللهُ عنده هو عقلُه الشخصيُّ وفهمُه وروحُه وجسدُه. من فتشَ عن اللهِ في ذاتِه وَجَدَهُ فيها وحدةً وتعدداً.

وكذلك مرقيون (ت حوالي ١٥٥) زعيمُ النحلةِ المرقيونية الذي نشرَ كتابَ (المتناقضاتِ) واظهرَ فيه الفرقَ بين العهدِ القديمِ والعهدِ الجديدِ . بناءً عليه حذفَ أسفارَ العهدِ القديمِ كلّها وأبقى على بعضٍ من أسفارِ العهدِ الجديدِ. رفضتِ الكنيسةُ قانونَ مرقيون لإنّها رأت فيه رجلاً عرفانياً نزعَ الى تشويهِ الكتابِ ليعكسَ الصورةَ التي شاءها عن يسوع الناصري. وبعدَ الرفضِ أنشأ مرقيون العديدَ من الكنائسِ المنشقةِ في اماكنَ مختلفةٍ منها الإقليم العربيّ .

ولقد كشفت العادياتُ الآثريةُ في قريةِ دير علي جنوب دمشق على منقوشةٍ لكنيسةٍ مرقيونيةٍ بناها شيخ مرقيوني في مطلع القرنِ الرابع الميلاديّ. ولعلَّ ذلك ما يُبَرِّرُ بعضَ الشيءِ المثلَ القاسي بأنَّ الإقليمَ العربيَّ مُمْرِعٌ بالنحلِ.

يذكرُ افاسيوس كبيرُ المؤرخين المسيحيين أنَّ كتاباً جاءَ من حاكمِ الإقليمِ العربيِّ الى ديميتريوس اسقفِ الاسكندريةِ والى والي مصر يسألهُما إرسالَ العلامةِ اوريجنس على جناحِ السرعةِ لتداولِ الرأي وتبادلِه. وهكذا كان يومُ قدومِ العلامةِ أوريجنس على الإقليمِ العربيِّ مشهوداً. فأكملَ المهمةَ ورجعَ ظافراً بانجازاتِه الى مصر. فاستبانَ تأثيرُه في الاسكندريةِ حتى أنَّ إمامَ قسوسِها تعاطفَ معه عندما عزمَ مجمعُ الإسكندريةِ برئاسةِ ديميتريوس إبسالَه سنة ٢٣١ .

ومن بين الأحبارِ البارزين في إقليمِ العربِ الذين ذكرهُم المؤرخُ إفسابيوس هو بيرلوس إسقف البصرة الذي ترك أدباً مسيحياً رفيعاً. هذا الحبرُ وقع في اوّلِ امرِه في دوامةِ نحلةٍ تقولُ بأنّ يسوعَ المسيح لم يكنْ له وجودٌ قبليّ في ذاتِه سابقٌ لسكناه بين البشرِ، ولم تكنْ له ألوهة في ذاتِه لانّه اتخذها حلولاً من الآب. وهكذا استجوبه العديدُ من علماءِ الكنيسةِ وباحثوه، الى أنْ أرْسِلَ أوريجنس مع علماء آخرين الى إقليمِ العربيةِ لاستقصاءِ آرائه. فباحثه اوريجنس وقتاً، وبعد أن تعرّف الى أسسِ رؤيتِه اللاهوتيةِ قوّم ما اعوج منها وأعاده الى الرأي القويم.

أما الرحلةُ الثالثةُ التي قامَ بها اوريجنس الى إقليمِ العربِ فجاءت بعدَ أنْ برزتْ جماعةٌ عربيةٌ فيه قالت بنحلةٍ تدّعي أنّ الروحَ البشريةَ تزول من الوجودِ بعد الموت زوالَ الجسدِ، لكنّها تعودُ الى الحياةِ في يومِ الحشرِ تماماً كما يعودُ الجسدُ البشريُّ. دحضاً لهذه النحلةِ التأمَ مجمعٌ كنسيٌّ كبيرٌ دُعي اليه أوريجنس. فلمّا جاءَ المجمعَ، فتَحَ بابَ الجدلِ مع أصحابِ النحلةِ واضطرهم الى تغييرِ وجهةِ نظرِهم.

بعد ذلك جادلَ اوريجنس اسقفاً عربياً يُدعى هيراقليذس (ابن هرقل) مع زملاءٍ له في الاسقفيةِ في شأنِ الآبِ والابنِ والنفسِ.

وفي عهدِ المجامع الكنسيّةِ المسكونيةِ والمحليّة انتُدبَ العديدُ من الأحبارِ للمشاركةِ في هذه المجامع، ابتداءً من المجامع الثلاثةِ التي التأمت في انطاكية ما بين ٢٦٣ و ٢٦٨ لمحاكمة بولس السميساطي الذي قال إنّ المسيحَ كان إلهاً بالتبنيّ. فكان مكسيموس البصري من بين الذين وقّعوا محاضرَ جلساتِ هذه المجامع.

أمّا مجمعُ نيقية المنعقدُ سنة ٣٢٥ فقد حضرَه بعضُ أساقفةِ الإقليمِ العربيِّ.

وفي سنةِ ٣٨١ قصدَ مجمعَ القسطنطينيةِ المسكوني خمسةُ أحبارٍ من الإقليمِ العربيِّ وهم أحبارُ بصرى ودرعه والسويدا وبراق وشيخ مسكين (أو خان النيل). وفي مجمع خلقيدونية (٤٥١)، اي المجمع المسكوني الرابع اعترفَ آباءُ المجمع رسمياً بتبعيةِ الإقليمِ العربيِّ الى بطريركيةِ انطاكية، رغم محاولةِ الاسقفِ الاورشليميِّ مدَّ سلطتِه شرقاً. ولكنْ أتبعت ولايةُ فلسطين الثالثة التي ضمت اجزاءً من الإقليمِ العربيِّ الى كرسي اورشليم الذي رُقيَّ الى مقامِ بطريركي. جلسَ في هذا المجمعِ المسكونيِّ الرابع سبعةَ عشرَ حبراً من الإقليمِ العربيِّ وهم أحبارُ درعة وعينة وقنوات وبراق اللجا والسويدا وصنمين وحسبان وأفتيمية وحرش ومادبة والشقا وخان النيلة (أو شيخ مسكين) ونوى وعمان والشهبا وأذرع.

ويوردُ كتابُ أسماءِ الشهداءِ بعضاً ممن ضحوا بالنفسِ ذوداً عن إيمانِهم المسيحي فاستشهدَ من الإقليمِ العربيِّ العديدُ من الشهداءِ منهم:

كيرلس

واكويلا

ومناندر

والقديسة ثيرين البصرية.

والبحثُ في العاديّاتِ القديمةِ كشفَ عن أثارِ كنائس عديدةٍ في المدنِ والأريافِ وعن نقوشٍ حجريةٍ تُحدثُ المعرفةَ عند الباحثِ على وجهِ الصدقِ بالكراسي الاسقفيّةِ والمراكزِ المسيحيةِ الهامةِ في الإقليمِ العربيِّ.

ولا ننسى أنَّ النظامَ القبليَّ أعطى الحريةَ لرؤساءِ القبائلِ في إدارةِ قبائلِهم، لكنَّه

افترضَ الخضوعَ الى حكمٍ خارجيٍّ. وبذلك قَدَّرَ هذا النظامُ للقبائلِ أن تتعرّف الى المسيحيةِ وأن تتأثّرَ بها. وهكذا وصلتنا أخبار عن مسيحيةِ بعضِ زعماءِ القبائلِ. فمثلا يروي المؤرخُ سوزومينوس الذي عاشَ في اوائلِ القرنِ الخامسِ الميلادي حادثةَ رئيس قبيلةٍ يُدعى زخوموس (زقوماً) اعتنقَ المسيحيةَ بفعلِ تأثيرِ أحدِ الرهبانِ عليه. فهذا الراهبُ أخذ بالإستشفاعِ الى اللهِ ليجودَ بابنٍ على رئيسِ القبيلةِ. فتقبّلَ اللهُ دعاءَ الراهبِ الزاهدِ فتنصّر الشيخُ وقبيلتُه وصاروا من أصدقِ القبائلِ طويةً وأصفاها نيّةً في ولائها للمسيحيةِ وفي مساندتِها لبلادِ الرومِ في تصارعِهم مع الفرسِ.

ويذكرُ المؤرّخُ اليونانيُّ كيرلس البيساني (في القرن السادسِ الميلادي) واقعةَ اهتداءِ هذه القبيلةِ العربيةِ. ففي سردِه لسيرةِ الراهبِ افثيميوس يشيرُ الى شفائه لابنِ رئيسِ هذه القبيلةِ بعد أنْ فشلت فيه حيلُ الأطباءِ ورقي الراقين المشعوذين. فلمّا طفَرَ الصبيُّ يمشي اهتدى أبوه وقبلَ المعمودية وأمسى رسولاً عربيّا يبشّرُ القبائلَ العربيةَ بالناصري. ومن ثمَّ بشّر افتيموس أفرادَ القبيلةِ وعمّدهم وأقامَ لهم شيوخاً ومذبحاً للرب. ومما يُذكرُ أيضاً أنَّ رئيسَ هذه القبيلةِ ويُدعى صخراً رُقّعَ الى المقامِ الحبريِّ. ولعلّه اشترك في مجمع أفسس (٤٣١) وكان على رأسِ وفدٍ جاء يزورُ البطريركَ الإنطاكيَّ يوحنا. أما ابنه وحفيدُه فخلفاه في رئاسةِ القبيلةِ. ولقد تتلمذ لافتيموس عربٌ كثيرون من أهمِّهم الياس بطريرك اورشليم الذي رفضَ مقرراتِ مجمعٍ خلقيدونية، واسطفانوس الذي خَلَفَ افثيموس في رئاسةِ الدير (اوائل القرن السادس الميلادي).

وفي حقلِ التشييدِ والإعمارِ الكنسيِّ نرى المسيحيين يحوّلون معابدَ بعضِ المدنِ الى كنائس مسيحيّةٍ منها معابد جرش والقنوات وشقا وبصرى وأذرع.

وفي مادبة، كان يومُ إنشاءِ كنيسةٍ فخمةٍ في سنة ٥٧٨ م، على اسقفِها، يوماً مشهوداً، ويُعلي لاونديوس شيخُ مادبا كنيسةً جديدةً سنةَ ٣٠٦ م، ثمَّ يُكملُ إنشاءَ كنيستي اليانة وصياغة ليكونا من أهمِّ كنائسِ الإقليمِ.

إنَّ طالعةَ الأثرِ المسيحي في الإقليمِ العربي يفوقُ التصورَ، تاريخاً وإرثاً، ليكون المغزى في بادرةِ دراسةٍ تجيءُ عزاءً لتاريخٍ لقي من دهرِ الباحثين عنتاً، ولقي من كتبِ التاريخ تغافلاً ... وما أوردنا سوى لُمْعةٍ لخطوطِه العريضةِ ريثما يستجدُ سعيٌ خالصٌ يفي التاريخ حقَّه.

الفصلُ الرابع:

مَمْلَكَةُ الحيرةِ اللّخميّةِ:

منذ أقدمِ العصورِ كان سكانُ الجزيرةِ العربيةِ ينطلقونَ الى حدودِ الجزيرةِ الشرقيّةِ انتجاعاً لخِصبِها وَحَضَارتِها. فهي المجازُ البريّ الفريدُ في جغرافيتِهم نحو ربوعٍ مريعةٍ يَتَوافَرُ فيها الماءُ غَزْراً، فما إن يَصلوا اليها حتى يُقيموا المَضَارِبَ ويَستوطنوها لآبثين فيها على غيرِ رَجْعَة.

هكذا في أوائلِ القرنِ الثالثِ الميلاديّ بَدت طلائعُ القبائلِ التنوخيّةِ التي يَرْجَعُ نَسَبُها الى أصلٍ يمنيّ تردُ القُراتَ في قاعدةٍ عُرِفَت بالحيرة. فالحيرةُ مدينةٌ تقعُ في الجزءِ الجنوبي من بلادِ ما بينَ النهرين ، على مَقْرَبةٍ من مدينةِ الكُوفة، غربي مدينةِ بابل القديمة على الشاطىءِ الأيمنِ لنهرِ الفرات. إنَّ الإسمَ الارآميَّ حرثا الذي أصبحَ في العربيةِ حيرا يحملُ معنى المُخيم أو المستعمرة. عاشت في هذه البقعةِ مجموعاتٌ سكنيةٌ متحضرّةٌ معظمُها من الحرفيين والتجارِ والفلاّحين وذلك لموقِعِها الجغرافيِّ المهمِ ولخصوبةِ سهولِها وطيبِ مناخِها.

في مطلعِ القرنِ الثالثِ الميلاديّ، وقبيلَ انهيارِ حُكمِ البرثيين (الفرس) الذين امتدت امبراطوريتُهم من بحرِ قزوين الى الخليج العربيِّ ومن نهرِ دجلة الى الافغانستان ، أفادَ التنوخيّون من انشغالِ الفرسِ باضطراباتٍ داخليةٍ فانتقلوا من البحرين الى العراق. فنزلوا أولاً في منطقةٍ تقعُ بين الحيرةِ والأنبارِ ثمَّ استقرَ قسمٌ منهم في مدينةِ الحيرةِ وأنشأوا فيها امارةً لم تُعَمَّرْ طويلاً بسببٍ من هجومِ الساسانيين عليها. وبعد انتقالِهم الى سوريا اتخذَهَا

اللخميون المناذرةُ الذين حكموا العراقَ من منتصفِ القرنِ الثالثِ للميلادِ الى مطلعِ القرنِ السابعِ عاصمةً لهم، فأصبحت في عهدِهِم مركزاً سياسياً وعسكرياً وأدبياً مرموقاً.

إنَّ اسمَ اللخميين تعددت أشكالُه فجاءَ تحتَ اسمِ آلِ لخم، وآل نصر، والمناذرة. ولعلَّ نَسَبَهم يرجَعُ الى جدِهم نصر الذي جاءَ من الجنوبِ العربيِّ بعد اجتياح الأحباشِ له، غيرَ أنَّ بعضَ المؤرخين ينسبونَهم الى القبائلِ المتحدرةِ من معد بن عدنان، الجدِّ الجاهليِّ الذي خرجت منه بعضُ القبائلِ العربيةِ التي نشأت في شمالي الجزيرةِ، التي تفرعت منها القبائلُ العدنانيّةُ المتعددةُ.

أول من عُرِفَ من آلِ لخم في الحيرةِ هو عمرو بن عديّ أي ابن نصر بن ربيعة اللخمي (ت ٣٢٨) الذي خلفَ خاله جذيمة الأبرش (ت ٢٦٨) الذي هو من تنوخ قضاعة واستولى على ما بين الحيرةِ والأنبارِ. فجذيمةُ جاء خلفاً لمالك ابن فهم الأزدي الذي هو أولُ من وُلّي الأمر في هذه الإمارةِ في العراق. ولقد ملكَ ستين سنة. ولمّا لم يكنْ له غلام يَرِثُهُ تولى ابنُ اختِه عمرو ابن عدي مكانَه. فكان أولَ ملكٍ لخميٍّ في الحيرة.

لم تكنِ الإمارةُ اللخميةُ مستكملةَ السيادةِ، فلم تتفردْ بلادُهم بحكمِ نفسِها وبتقريرِ مصيرِ سياستِها من غيرِ مشاركةٍ خارجيةٍ، لأنّها كانت تقعُ في دائرةِ النُفوذِ الفارسيّ. فبلادُ ما بين النهرين كانت للفرسِ خاضعة في القرونِ الستةِ السابقةِ لظهورِ الأسلامِ. إنَّ الجبارين الفارسي والرومي تنازعا المنطقةَ شدّاً ودفعاً بالتحالفِ مع القبائلِ المنتشرةِ فيها. فكما تحالف الرومُ، تتابعاً، مع اماراتِ التنوخيين والصالحيين والغساسنة. لقد تحالفَ الفرسُ واللخميون وعقدوا الخناصرَ على بسطِ سيادتِهم على تلك الديار.

ولمّا كان هناك العديدُ من القبائلِ العربيّةِ المنتشرةِ حتى الخليج الفارسيِّ التي لم تكن تابعةً لحكمٍ مركزيٍّ، فإنّها انضوت تحت الحكمِ الفارسيّ. فالفرسُ دعموا هذه القبائلَ وعلى رأسِها قبيلةَ آل لخم وأمدّوها بالسلاح والمالِ وذلك لمحاربةِ الرومِ وحلفائهم العرب

القاطنين في سوريا.

وبينما كفلت الرومُ العملَ المسيحيَّ التبشيريَّ رغم مشقةِ أهلِ النحلةِ، فإنَّ الدولةَ الفارسيةَ كانت في تغايرٍ وافتراقٍ، لانَّ الدينَ الفارسيَّ لم يثمرْ عند الشعوب الأخرى. فالدينُ الفارسيُّ كان مثنوياً:

فقديماً كان الفرسُ يدينون بدينِ زرادشت المصلح الفارسي القديم الذي قال بوجودِ الهين يتصارعان تصارعاً لا ينقطع، وهما:

أهورا مزدا وهو يمثّلُ الخيرَ.

أهريمان وهو يمثّلُ الشرَّ.

التزمَ الزرادشتيون نظاماً تقشفيّاً صارماً وذلك للتطهرِ فكراً وقولاً وعملاً.

ثمَّ جاءت المزدكيةُ فتنازعَت مع الزرادشتية بعد أن اعتنقها ملكُ الفرس قباذ الاول. فهو الذي دعا الى القولِ بمبدأين أصليين هما الخيرُ أو النورُ والشرُّ أو الظلامُ. الخيرُ يعملُ بإرادةٍ وتصميمٍ أمَّا الشرُّ فخبط عشواء من يُصبه يلتحم به. وهكذا امتزج مصادفةً مع الخير فكان الكون. ومما دعت اليه المزدكيةُ أيضا هو التشاركُ في المالِ والنساءِ.

أمَّا المانويّةُ فكانت نحلةً مسيحيةً أسَّسها النبيُّ الفارسيُّ ماني في القرن الثالث المسيحيّ فانتشرت ابتداءً من القرن الرابع انتشاراً واسعاً في أرجاءِ الامبراطوريةِ الفارسيّةِ. فكانت تلفيقيةً تجمعُ العناصرَ المسيحيةَ والبوذيةَ والزردشتيةَ. وبسببِ مثنويتِها فقد عبدت النيرين الشمسَ والقمرَ وأقامت الصلاةَ للنجومِ والقوى المحتلفة في الكون وحتى الشيطان نفسه. وقالت بطيفيةِ التجسدِ وبظهورٍ خارجيٍّ للمسيح.

وهذا ما يوصلُنا الى التحدثِ عن انتشارِ المسيحيةِ في ممكلةِ الحيرةِ اللخميةِ.

انتشارُ المسيحيةِ في الامارةِ اللخمية

دخلتِ المسيحيةُ بلادَ ما بين النهرين وبلادَ فارس منذ انطلاقِ الحواريين عندما أبشروا بالمخلصِ الذي كان الكثيرون به يوعدون. فمنهم من قال إنَّ الحواريَّ توما كان أوَّل من حمل الى هناك بُشرى المسيحية، ومنهم من قال إنَّ التلميذين آداي وماري هما اللذان رفعا قواعدَ الايمانِ المسيحي في تلك البقعةِ من الارضِ.

ولعلّه من الثابتِ بيقينٍ وحقيقةٍ أنَّ القسَّ السوريَّ بارشابا هو الذي أدخلَ المسيحيةَ الى مدينةٍ عراقيةٍ تُدعى مرو.

أمَّا السبيُّ الفارسيُّ للعديدِ من المسيحيين أثناءَ النزاعِ الروميِّ الفارسيِّ فحملَ معه العديدَ من السبايا المسيحيين وقد يكون بارشابا أحدَ هؤلاءِ المسبيين. غيرَ أنَّ المعلوماتِ الاكيدةَ المتكاثرة تثبتُ الوجودَ المسيحيَّ في منتصفِ القرن الثالثِ المسيحي مع قيامِ الدولةِ اللخمية على يد عمر بن العاص.

ولمَّا كانت الحيرةُ تتألَّفُ من مجموعاتٍ سكنيّةٍ يقطنها التجَّارُ والحرفيون ويدعمُها توافدُ سكان العراقِ المسيحيين، فإنَّ المسيحيةَ استقرت في الحيرةِ بتعاقبِ متراخٍ من الزمنِ.

ينقسمُ سكانُ الحيرةِ في تلك الحقبةِ الى ثلاثةِ أقسامٍ:

أولا: العبّادُ وهم ينتمون الى قبائلَ مختلفةٍ، تجمعهم وحدةُ الإيمانِ المسيحي. فهم يتألفون من قبائل: تميم ولخم وأزد، يُضافُ اليهم بعض التنوخيين الذين لاذوا بالحيرة،

لكنّهم تبادلوا أسبابَ الحياةِ بإلفٍ ومودةٍ. ولهذه التسميةِ دلالةٌ، ومازيةٌ خاصةٌ وهي انّها تفرُّد عن السكانِ الوثنيين، كونهم انفردوا للعبادةِ والنسكِ. يشير بعضُ الباحثين الى أنَّ هؤلاء كانوا من المتنسطرين كما أشرنا سابقاً.

ثانياً: عربُ الضاحيةِ الذين تلبّثوا بما بين الحيرةِ والأنبارِ فاتخذوه مَعذىً ومراحاً. وهؤلاء هم التنوخيون الاوائل الذين ينتظمون في ذكرِ حبلِ النسبِ الى القضاعيين القادمين من نجد وتهامة.

ثالثاً: الأحلافُ الذين تناصروا مع المناذرةِ على السيادةِ يداً واحدةً.

ولعلَّ منتصفَ القرنِ الثالثِ بَدءٌ للمسيحيةِ الواسعةِ في الحيرةِ، وذلك في عهدِ عمرو بن عدي مؤسس سلالة آل نصر اللخمية. والدليلُ في ذلك قرينتُه مارية المسيحية التي كانت من آل الأزد وهم الى العبادِ ينتسبون.

وجاءَ امرؤ القيس خليفةً لعمرو بن عدي بن نصر اللخمي فكان ثاني ملوك الدولةِ اللخمية. كان شجاعاً ومهيباً فاتسعَ ملكُه وخافته القبائلُ المجاورةُ. لُقبَ بملكِ العربِ او بالبدءِ أي الاول، لأنَّه كان أول من حملَ لقبَ الملك بين أهلِ الحيرة. فلبسَ التاجَ ودامَ ملكُه ٣٥ سنة. أما الأثرُ الفريدُ له فهو منقوشةٌ حجريّةٌ عُثر عليها في عادياتِ كنيسةٍ في الإقليمِ العربيِّ. وهي تنصّ على ما يلي:

«هنا قبرُ امرءِ القيس بن عمرو، ملك العرب، الذي تقلّدَ التاجَ، وأخضعَ قبيلتي أسد ونزار وملوكهما، وهزمَ مذحج الى اليوم، وقاد بالظفرِ الى أسوار نجران مدينة شمّر، وبعد أن اخضعه استعملَ بنيه على القبائلِ، وأنابهم عنه لدى الفرسِ والروم، ولم يبلغْ مبلَغَه ملك حتى اليوم، توفي في ٧ كسلول من السنة ٢٢٣ لبصرى، وهو يوافق ٧ كانون الأول من ٣٢٨ ميلادية».

كُتب هذا النصُّ بالحرفِ النبطيِّ الجميل، وهي أقدم كتابة وجدت تقرب لهجتُها من عربيةِ قريش. وفي مكانِ وجودِ هذا النصِّ وفي مضمونِه إثباتٌ بيقينٍ أنَّ إقرارَه بالمسيحيةِ حقيقةَ اجتمعت اليها مواطأةُ قلب أمه.

بعد موتِه توالى خلفاؤه بعضُهم إثر بعضٍ فكان أولهم عمر بن امرىء القيس (٢٣٨، ٣٥٨) ، وثانيهم أوس بن قلاّم (٣٦٩؛٣٥٨) الذي اخذ المُلكَ صيالاً واقتساراً، غير أنَّ امرؤ القيس الثاني (٣٦٣،٣٨٨) أكرهه على التخلي عن العرشِ فكان إحدارُه عودةً الى السلالةِ اللخميةِ.

كان حكمُ هؤلاء الملوكِ ضعيفاً الى ان جاءَ النعمان ابن امرؤ القيس الثاني فكان اعتلاؤه العرشَ بروزاً جديداً للسلالةِ اللخميةِ.

وهكذا وليها بعد موت ابيه نحو ٤٠٣ ميلادية، وفي نظرِ المؤرخين أنَّه كان شجاعاً كثيرَ الغاراتِ، داهيةً باسلاً مقداماً. عُرفَ بالاعورِ أو بالأكبرِ، ويُقال له أيضاً فارس حليمة. غزا الشامَ بتحريضٍ من الفرسِ وسبى الكثيرَ من أهلِها. انتظمَ جيشُه في خمس فيالق:

<u>الاول تنوخي ويُدعى دوس؛</u>

<u>الثاني فارسي ويُدعى الاشاحب.</u>

<u>الثالث قوامُه رهائن من القبائل العربيةِ المسبية.</u>

<u>الرابعُ قوامُه من بني قيس وبني تميم اللات.</u>

الخامس امبراطوري يتألفُ من الجيشِ الفارسي الامبراطوري.

وفي الوقت نفسِه مال بولوعٍ الى البناءِ فكان المشيدُ من أبنياتِه كثيراً. فهو باني القصرين الشهيرين:

الخورنق،

والسدير،

فهما من النفيسِ الثمين في فنِ البناءِ.

أما في الوضع المسيحيّ في عهدِه فقد برزَ الراهبُ الشهيرُ سمعانُ العمودي الذي كانت تزحفُ اليه جموع من المؤمنين طالبين ابتهالاتِه استشفاءً من أسقامِهم، والتماساً للبرءِ بالعلاج الروحاني. وعلى رأسِ هؤلاء كان العربُ يحجّون اليه زرافاتٍ ووحداناً.

ولقد ذكرَ المؤرخُ ثيوذوريتس أنَّ العربَ مئاتٍ بل الوفاً كانوا يعتمدون محطّمين اصنامهم أمام العمودِ. يروي المؤرّخُ المذكورُ ثيوذوريتس هذه الحادثةَ المميَّزة:

«كنت واقفاً أمامَ عمودِ سمعان، فجاءت قبيلةٌ عربية ترجو الرجلَ الالهيَّ سمعان وتقول:

يا رجلَ الله خُذ برضاك وبركتِك على رئيسِ عشيرتنا. وكانت هناك قبيلةٌ اخرى حاضرة تعارضُ وتقول: لا تَخُذ بركتك على هذا الرئيسِ بل على رئيسِنا. فتشاقّ القومُ وأمعنوا في الخصومةِ. أما أنا فنصحتُهم بالهدوءِ وباعطاءِ البركةِ لكلا الرئيسين لعلّهما يتوافقان. لكنَّهم رفضوا اقتراحي وتشبثوا بعزمٍ ثابتٍ على موقفهم. فانهال عليهم سمعان تروبعاً حتى قطعَ خصومَتهم».

لقد جاءَ المؤرخُ على ذكرِ هذا الخبرِ إبانةً لمرتجى العربِ بقوةِ سمعان. ولم يكتفِ

المؤرخُ بهذا الخبرِ، بل أوردَ العديدَ مما اجترحَ من عجائب على عددٍ من رؤساء القبائلِ العربيةِ.

ويروي انطيوخوس ابن سسنوس حاكم دمشق أنَّ النعمان ملك الحيرة حطَّ الرحالَ في باديةِ الشامِ فدعاه الحاكمُ لتناولِ الطعامِ معه. فما إن استوى بهما المقامُ حتى سأله النعمانُ عن سمعان العمودي: هل هو في رأي قومِه إلهٌ أم بشرٌ؟

فأجابه الحاكمُ إنما هو بشر، لكنه من خَدَمِ اللهِ.

فقال النعمانُ إنَّ العربَ يكبرونه ويرفعونه عن طوقِ البشرِ ومدى كفاياتِهم. ويُخشى أن يدخلَ العربُ كلُّهم في النصرانيةِ. ولمَّا عزمت تحريمَ قومي الالتجاءَ اليه رأيتُ في الحُلمِ رحلاً حليلاً يقولُ حذار حذار من ممانعةِ قومك الاتصال بالرحلِ. فسمحتُ بذلك الى أن انتشرت المسيحيةُ بيننا وأقمنا الإساقفةَ والشيوخ.

ولمَّا رقدَ القديسُ سمعانُ العموديُّ رقدةَ الموتِ تسارعت اليه القبائلُ العربيةُ لاختطافِ الجثمانِ، حتى منعَهم القائدُ الروميُّ من ذلك، فنُقلَ الجثمانُ الى انطاكية.

وفي عهدِه وافى الحيرةَ الراهبُ الشهيرُ عبدُ يشوع فبشَّرَ أهلَها وعزَّزَ التنظيمَ الكنسيَّ فأقامَ اسقفاً فيها وديراً.

وفي عام ٤١٠م تمثَّلت مملكةُ الحيرةِ باسقفٍ يُدعى هوشع، وذلك عندما جَعل المجمعُ للكنيسةِ الفارسيةِ وضعاً مستقلاً عن انطاكية.

إنَّ المحاضرَ المجمعيةَ اللاحقةَ تشهدُ لاشتراكِ اساقفةِ الحيرةِ فيها. والمسيحيةُ في الحيرةِ كانت متعددةَ المذاهبِ على رأسها:

النسطورية التي كان تخلَّلُها الحيرةَ قويّاً.

واللاخلقيدونية، التي لجأ ابناؤها الى الحيرةِ بسببٍ من الضغطِ الروميّ عليهم. ولقد عرفت الحيرةُ نهضةً لاخلقيدونية قويةً ترقّت صعداً بالطليعيةِ اللاهوتيةِ والتعليميةِ.

أما في شأنِ مسيحيةِ النعمانِ فمن الثابتِ انّه زهد بعد اكتهالِه واستعاضَ عن رداءِ الملكِ بقباءِ النسكِ، وانصرفَ سائحاً في البلادِ. فالايضاحُ اليقيني عنده أنّ لا شيءَ يدومُ الاّ ما عندَ اللهِ في الاخرةِ. وهكذا زهدَ ملتمساً ما عند اللهِ، كما ألمعَ الشاعرُ عديُّ بن زيد في قصيدةٍ له.

خلفه في الملكِ المنذرُ الاوّلُ (٤١٨ ،٤٦٢) الذي حاربَ الرومَ تعضيداً بتقويةِ الفرسِ. غير أنّا نجده يمثّل دوراً هاماً في ايصالِ بهرام الرابع الى الحكمِ إثرَ وفاةِ الامبراطور يزدحر، وذلك على كرهٍ من الكهّان المزديين الممانعين اعتلاءَه العرش.

وما يتميّز به المنذرُ الأولُ هو رفضُه التنحيّ والنكوص عن التحالفِ مع الفرس، اذ قام أحدُ الفرسانِ، واسمه اسبيبت، باللياذ والاعتصامِ في الاراضي الروميّة متنصّراً ومهتدياً الى السراطِ المسيحيّ. فهمَّ المنذرُ بالدخولِ في المعركةِ باستحكامِ لاعادتِهم فلم يكنْ من الافلاح فوزاً أو ظفراً. وليس يدلُّ الامر على معارضةٍ للمسيحيةِ، لانّ عهدَه لم يكن صائلا بالمسيحيةِ بشدةٍ وعنفٍ، بل كان عهدُه حرّاً متسامحاً.

تولى بعدَه ابنُه الأسودُ اللخميُّ (٤٦٢، ٤٩٢). فنشبت بينه وبين الغسانيين ملوكِ الشامِ حروبٌ فقهرَهم في بادىءِ الأمرِ، لكنّه قُتلَ في إحدى معاركِه معهم. ولقد كتبَ اسقفُ الحيرةِ برصوم كتاباً الى البطريركِ النسطوري أكاكيوس يوردُ حادثةً مهمةً وقعت عام ٤٨٤م يقول فيه:

«لمّا كنّا نعاني من قلةِ المطرِ ونقصٍ في الاغذيةِ، تجمّع عربُ المقطعاتِ الغربيةِ، وقطعوا الزرعَ والضرعَ بكثرةِ مواشيهم ونهبوا وخطفوا البهائمَ من الحواضرِ الرومية. فجمعَ الرومُ الجنودَ مع الأنصارِ والاعوانِ العربِ، مبتغين ادراكَ ثأرِهم على الباغين من حلفاءِ الفرسِ. فهدأتهم الحكومةُ الفارسيةُ وعقدت اجتماعاً عاماً للعربِ اتباعِهم بغيةَ تأديةِ الغنائمِ وفكِ الأسرى، شريطة أن يُعيدَ العربُ الموالون للروم ما أخذوه قهراً وانتهاباً في غاراتٍ

سابقة. وفي أثناءِ المفاوضاتِ جاءَ القائدُ الروميُّ وأركانُه الى نصيبين، فجرى الاحتفاءُ بهم، ولمَّا قعدوا الى طاولةِ العشاءِ أدركوا أنَّ عربَ الفرسِ أغاروا على القرى الرومية في استلابٍ واختلاسٍ. فعدَّ الرومُ ذلك مصيدةً للايقاعِ بهم. وهكذا لم تخرجِ العلاقاتُ بينهما من فخِّ ابليس».

تولى المنذرُ الثاني بعد الأسودِ (٤٩٢ ، ٤٩٩) فسعى مع الاسقفِ النسطوري، بار صوما تلميذ ايباس الرهاوي الى اعادةِ رسمِ الحدودِ بين الجبارين الرومي والفارسي بعد أن أنتهزَ العديدُ من القبائلِ العربية على الحدود عدمَ انتظامِ الامنِ هناك.

ثمَّ جاءَ النعمانُ الثاني (٤٩٩،٥٠٤) الذي خاض بنفسه المعاركَ الدائرة بين الفرسِ والرومِ، فاوقع النهبَ والسرقةَ لقلةِ ايمانه. وفي عام٥٠٢ استخدم أباطرةُ الروم عرب سوريا ضد عرب الفرس، ولكنْ بدون نتيجة. ولمَّا عزمَ النعمان الثاني الانقضاضَ على الرها، بعد أن استنصرَ به قباذ الأول ملك الفرس، أراد أحدُ قوادِه الحيلولةَ دون الهجوم لموقعِها المسيحي، فاستشاطَ عليه مجدِّفاً على المسيح. لكنَّ الحياةَ زالت عنه إثر ذلك، فمات على أبوابِ المدينةِ محاصراً لها.

وبعد انتقالِ الحكمِ الى واحدٍ من خارج السلالةِ الملكيةِ عاد الحكمُ اليها مع المنذر الثالث الذي دامَ حكمُه نصف قرن (٥٠٥،٥٥٤) وقد عُرف بابن ماء السماء، وهو لقبُ امِه ماريّة أو ماويّة.

حضَّ المنذر قباذ ملك الفرس أن يبادرَ الرومَ بالحبِّ، فيما أرسلَ متلمسي الأخبار في تخفٍّ وتدةٍ الى سوريا فعلمَ أنَّ المنطقةَ غيرُ محروسة. فأغارَ على الحدودِ الرومية فنهبَ وأسرَ وقتلَ. وفي ربيع ٥٢٩ انقضَّ المنذرُ على المقاطعاتِ الرومية في سوريا، فانطلقَ، في استخفاءٍ، الى انطاكية مقتحماً ومقتّلا.

ومن مظاهرِ وثنيتِه أنَّه قدَّم أربعمئة راهبة أضحيةً الى الإلهِ العزّى كنَّ وقعن تحت

براثنه أثناء غزوتِه الى حمص.

كما قدّم ذبيحةً لهذا الغرنوق ابن الحارث الغساني الذي أسره في إحدى غزواتِه.

غير أنَّ المسيحيةَ شقت طريقَها الى الأسرةِ المالكةِ عبر زوجتِه هند الكبرى ام عمرو الثالث اللخمي. وحسبما يُستدلُّ من النقوشِ فإنَّها أقامت ديراً مسيحياً في عهدِ ابنها عمرو.

وفي عهدِ المنذرِ أمَّ الحيرةَ شمعون الأرشمي فاستجابَ له بعضُ أهلِ الحيرةِ فأقامَ لهم كنيسةً أو أكثر. وفي سنة ٥١٣ أوفدَ البطريركُ اللاخلقيدونيُّ اسقفين الى بلاطِ المنذرِ يدعوانه الى التسليمِ بايمانهما. ويُروى أنَّه تكلّف الاسفَ الشديدَ عندما تناول حديثهما ميكايل الملاك الأعلى. ولمَّا سألاه عن سببِ تأسفِه قال موت الملاك الاعلى. فطمأناه بأنَّ الملائكةَ لا تموت، فقال: اذا كانت الملائكةُ لا تموت فكيف يُعقل أن تموت على الصليبِ الالوهيةُ المتحدة بناسوت المسيح في طبيعةٍ واحدة.

ما هذا الجوابُ سوى ترددٍ لموقفِ النساطرةِ الذين فصلوا بين اللاهوت والناسوتِ فأقاموا شخصاً للاتحادِ، تنزيهاً لله عن المادةِ وعن الصلبِ. فلم يدرك المنذرُ أنَّ الصلبَ كان في الجسدِ ولم يكن في اللاهوتِ، رغم أنَّ الشخصَ المصلوبَ كان ابن اللهِ نفسه.

وردّاً على نشاطِ اللاخلقيدونيين لهدي أهلِ الحيرةِ الى الارثوذكسية قام الاسقفُ النسطوري مارأبا وابراهيم القشقري بمجهودٍ لاقامةِ الردةِ الى النسطوريةِ في الحيرة. وبرز كذلك اسم اسقفِ الحيرةِ النسطوري نرسيس الذي اشتركَ في مجمعٍ عُقدَ لانتخابِ جاثليقٍ جديدٍ لكرسي سلوقية طيفسون.

أما الاسقفُ الجيولياني سرجيوس فقامَ بحملةٍ تبشيريةٍ تدعو الى القولِ بأنَّ ناسوتَ المسيح كان غير قابلٍ للفسادِ، أي أنَّ الناسوتَ الذي اتخذه المسيحُ كان منزّهاً عن الخطيئةِ الى حدّ أنَّه كان أساساً ممتنعاً على الالم والموت والفسادِ. فجسدُ المسيح كان غير فاسدٍ منذ لحظةِ تكوينه في رحمِ العذراء.

ويُقال إنَّ المنذرَ الثالثَ أزهقت روحُه في معركةٍ مع الحارث بن جبلة الغساني عام ٥٥٤م.

ولي بعد المنذر ابنه عمرو ابن هند (٥٥٤، ٥٦٩م) . عُرف بنسبِه الى أمه هند، (عمة امرئ القيس الشاعر)، تمييزاً له عن أخيه عمرو الأصغر (ابن أمامة). ويُلقّب بالمحرق الثاني لإحراقِه بعض بن تميم في جنايةِ واحدٍ منهم، اسمه سويد الدرامي. اشتهرَ في وقائع كثيرة مع الرومِ والغسانيين وأهل اليمامة. كان شديدَ البأسِ، جَعَلَ الحيرةَ موئلَ الأدباءِ والشعراءِ.

كانت هندُ امُّ عمرو أميرةً نصرانيةً غسانيةً. وهي التي شادتَ ديراً في الحيرةِ عُرف بدير هند وبقي الى القرنِ الثاني الهجري. ولقد أوردَ ياقوت الكتابةَ التي كانت على واجهةِ الديرِ جاءَ فيها:

(بنت هذه البيعةَ هند ... أمةُ المسيح وأمُ عبده (عمرو) وبنت عبده في ملك الإمالك خسرو انو شروان في زمن مار افريم الاسقف. فالالهُ، الذي بنت له هذا الدير، يَغفر لها خطيئتها، ويَترّحم عليها وعلى ولدِها، ويَقبل بها وبقومها الى أمانةِ الحقِّ ويكونِ اللهُ معها ومع ولدِها الدهر الداهر).

إنَّ ذلك لا يكفي لإقامةِ الدليلِ على نصرانيةِ عمرو أو عدمها. فالشواهدُ التاريخيةُ غيرُ كافية على ذلك.

استمرَ ملك عمرو خمسةَ عشرَ عاماً. وقتله عمرو بن كلثوم الشاعر أنَفاً وغضباً لأمه في خبرٍ طويل.

بعد مقتلِ عمرو، تولّى الحيرةَ أخوه قابوس بن المنذر(٥٧٠ ، نحو ٥٧٧)، الذي قاتلَ الغساسنةَ، وشنَّ هجوماً على انطاكية. مدتُه لم تطل. لاقى حتفَه أثناء اغارة القبائلِ المجاورة على الحيرة. وفي تلبيس إبليس، لابن الجوزي، أنَّ جماعةً من القدماءِ بنوا بيوتاً للأصنامِ،

منها بيت بناه قابوس الملك على اسم الشمسِ، بمدينة فرغانة، فخر به المعتصم. وهذه قالة تثبتُ وثنيَّته.

أما رابعُ المناذرة أصحاب الحيرة، فهو المنذر الثالث، ابن امرئ القيس بن النعمان بن الاسود اللخمي (٥٧٧، ٥٩٢) تولّى الحيرةَ، بعد قابوس، وكرهه أهلها، فهمّوا بقتله. فبعث الى زيد بن حماد وجعل له الحكمَ في ملكِه، واستبقى لنفسه اسم الملك. رضي بذلك أهل الحيرة ومات زيد نحو ٥٩٠ م واستمر المنذرُ الى أن قُتل في وقعةٍ له مع عربِ الشامِ، بعين أباغ. ويبدو أنه أقام على الوثنيةِ، لانَّ كتابَ الاغاني وصفه يقسمُ باللاتِ والعزّى.

وبدأت الاسرةُ اللخميةُ بالسقوطِ على عهدِ النعمانِ الثالثِ الملقب بابي قابوس (توفي نحو ٦٠٢ م). ولي الحيرةَ بفضلِ مساعدةِ اسقف الحيرةِ جابر بن سمعان ليكسبَ بها رضى الامبراطور الفارسي، وبفضلِ مساعدةِ والدِ عدي بن زيد الذي أصاب منصباً سامياً عند خسرو ابرويز، فإذا به كاتبه وترجمانه بالعربية. فاشار الاخير على ملكِ الفرسِ أن يولّيه عرش الحيرةِ، فأجابه الامبرطور الى ما طلب، إلاّ أنَّ النعمانَ لم يبرّ بوالدِ عديّ بن زيد فأمرَ بقتله. كان النعمان ممدوح النابغة الذبياني وحسان بن ثابت وحاتم طي. وهو صاحبُ إيفاد العربِ على كسرى وباني مدينةِ النعمانية على ضفةِ دجلة اليمنى، وصاحب يوم البؤس والنعيم. استمرَ ملكُه الى أن نقم عليه كسرى أمراً، فعزله ونفاه الى خانقين فسُجِنَ فيها الى أن مات. وقيل: القاه تحت أرجل الفيلة، فوطئته، فهلك.

قال أبو عبيدة: <u>إنَّ العربِ كانت تُسمي ملوك الحيرة، لانَّ النعمان كان آخرهم.</u>

من الثابتِ أنّه اتخذ النصرانيةَ ديناً وأصبحَ الملكَ النصرانيَّ الاكيدَ من ملوكِ لخم. يقولُ بعضُ المؤرخين أمثال افاغريوس أنه نشأ يذبح للاوثانِ حتى تنصر على يدِ الجاثليقِ صبر يشوع في السنة ٥٩٤ وبعضهم الاخر أمثال ابن خلدون، يقولون إنه تنصَّر على يدِ عدي ابن زيد. لم يدخل الكثيرُ من الملوكِ اللخميين في المسيحيةِ لما قضت به مصلحتُهم السياسية من مراضاةِ الفرسِ عبدةِ الأصنامِ. الاَ أنَّ النعمان انخرطَ في المسيحيةِ مذيباً التمثالَ الذهبي المقام للالهة العزّى.

هناك تنازعٌ بين العلماءِ في شأنِ نوعيةِ انتمائه المسيحي: منهم من يجعلُه نسطورياً ومنهم من يجعلُه لاخلقيدونياً. والحكمُ في ذلك عسيرٌ نظراً لارتباطِه ببعض الاساقفةِ النساطرة، ولارتباطه باليعقوبيةِ وفقاً لما يذكر الاسقفُ أبو رائطة الذي قام بخدمته.

بعد إسقاطِ المملكةِ اللخميةِ وإبطالها، تولى الحيرةَ إياس بن قبيضة الطائي الذي كان من فصحاءِ طيءٍ وشجعانها. حدثت في أيامِه موقعةُ ذي القار التي كانت ثورةً عربيةً مسيحيةً على الفرسِ. فانتصفَ بها المسيحيون العربِ من العجم، فهزموا الجيشَ الفارسي في موقعةِ ذي القار التي ذكرها القرآن الكريم ومدحها الشعراءُ العرب.

ولم يبرح إياس والياً على الحيرةِ إلى أن مات.

بعد إياس تولى الحيرةَ الفرسُ توليّاً مباشراً حتى الفتح الإسلامي، حينما استسلمت الحيرةُ للجيشِ الاسلامي الذي كان يقودُه خالد بن الوليد.

وفي صفوةِ القولِ لا بدَّ من الإشارةِ الى أنَّ المدنيةَ العربيةَ في الحيرةِ كانت خاضعةً للفرسِ حكماً وثقافةً وديناً، حتى أنَّ المؤثراتِ الثقافية الفارسية سرت الى الجزيرةِ العربيةِ عبر المملكةِ اللخميةِ. فالاحداثُ التي فصّلنا هي دليلٌ على تلازمٍ تبعيٍّ للفرس.

غير أن لغتهم ازدوجت فكانوا يرطنون بالعربيةِ في كلامهم ويكتبون بالسريانيةِ، شأنهم في ذلك شأن الانباط والتدمريين.

بسببٍ من هذه التبعيةِ كان ملوكُ الحيرةِ في معظمهم يذبحون للاوثانِ مراعاةً للفرس، بيد أن الكثرةَ الكاثرةَ من شعبِ الحيرة كان مسيحياً.

ويعودُ الفضلُ في ذلك الى بسالةِ نفوسِ المبشرين اللاخلقيدونيين الذين هدوا الكثيرين سراط الارثوذكسية.

أمَّا المسيحيةُ المتنسطرةُ فوجدت الحيرةَ حمى وملاذاً لها فتأصلت فيها وانتشرت. ولا ريبَ في أنَّ لامهاتِ بعضِ الامراءِ اللخميين أثراً في نفوسِ ابنائهن، منهنَّ:

أم امرؤ القيس بن عمر،

وأم عمر ابن امرئ القيس،

وأم المنذر بن النعمان،

وأم المنذر بن امرئ القيس الثالث،

وهند الكبرى ام عمرو بن هند.

والمشيَّدُ من الكنائسِ والاديارِ كان عديداً؛ أهمها:

كنيسة بني مازن.

كنيسة بني عدي.

كنيسة الباغوتة (وهي أهمُّ المراكز السبعة للعبادةِ عند العرب).

دير اللج الذي خلَّد ذكره الشعراء العرب.

دير مرتا الذي كان محجَّ العرب.

دير هند وفيه مقبرة النعمان. ويُروى أنَّ خالد البرمكي زاره مع الخليفةِ هارون الرشيد.

دير هند الصغرى الذي شيَّدته هند ابنة النعمان. وكان من أشهرِ أماكن العبادةِ عند الاعراب.

دير بني مرينا، الذي وصفه امرؤ القيس في شعرِه.

دير الجماجم الذي بناه آل اياد.

دير عبد المسيح.

في مدرسةِ الشعراءِ المسيحيين بزغَ عدي بن زيد الذي أحسن العربيةَ والفارسية. وكان ترجماناً عند كسرى أنو شروان وهرمز ابنه. وأبو داود وغيرهما.

وهكذا قامت في الحيرةِ كنيسةٌ تنطقُ بالعربيةِ وتكتبُ بالسريانيةِ، كثرت فيها المقاماتُ الروحيةُ ونشطَ فيها شيوخ الكنيسةِ، حتى ازدادَ انشعابُها فدخلت الانبارَ والبحرين وعمان.

وتساوقاً مع مقدمةِ الكتابِ تجيء النسطوريةُ قويةً فكادت تطبعُ المسيحية في الحيرةِ بطابعها لولا صرفُ الهمةِ اللاخلقيدونيةِ الى نشرِ الرسالةِ القويمةِ.

وعلى رأسِ العواملِ المسيحيةِ يجيءُ التحالفُ الفارسيُّ ليمثلَّ الدور الأهمَّ في إبقاءِ الوثنيةِ قائمةً بين العرب اللخميين، وفي تثبيتِ المسيحيةِ المتنسطرةِ والمقاومةِ للمعتقدِ القويمِ في بلادِ الروم.

الفصلُ الخامسُ:

الإمارة التنُوخيةُ على الطرف السوريّ:

موضوعُ الإمارةِ التنوخيةِ، ابتداءً، يعودُ الى القرنِ الرابع، إثرَ ظهورِ إمارةٍ تُحَالِفُ الرومَ ضد الفرس، عُرفت بالدولةِ التنوخيةِ.

وفي النِيَاسةِ، أي في علمِ الأجناسِ، التنوخيون هم رَسٌّ ذو خصائص يمينَة، تشعَّبت عنه قبائل نزحت الى الشمالِ بعد انفجارِ سدِّ مأرب، حين جرى السيلُ العرم فغمرَ الأرضَ حتى تفرّق القومُ أيدي سبأ.

ولعلّهم استقروا أولاً في الخليج يقومون فيه بما لَهُ وعليه، حتى انتقلوا الى الموطنِ الخصيبِ، الى ما بين دجلة والفرات، فخضعوا للفرسِ، لأنَّ تلك المنطقة أذعنت لأمرِ الفرسِ قسراً.

ينكرُ بعضُ علماءِ اللغةِ وجودَ شخصٍ اسمه (تنوخ)، فيقولون إنَّ لفظ (تنوخ) ومعناه الاقامة (من أناخ في المكان) اسمٌ يُطلقُ على عدةِ قبائل يمانية اجتمعت في البحرين وتحالفت على التناصرِ، فسميت تنوخاً لتنوخِها أي إقامتها.

وفي انتهازِ القبائلِ التنوخيّةِ، لانشغالِ الفرسِ بحروبٍ أهليّةٍ، تمَّ انتقالُهم الى منطقةِ

الحيرةِ والأنبارِ وسيلةً لمأربِ الاستقلالِ.

تولّى التنّوخيون على المنطقةِ، حتى انتهاءِ الفرسِ من حروبِهم. وهكذا بعدَ تهيّؤ الأمرِ للفرسِ على وجهِ التمامِ والاستقامةِ، جاءَ الأمبراطورُ أردشير بن بابك، مؤسسُ الأمبراطويةِ الساسانية، يضطهدُ التنوخيين وبعضَ البطونِ المنتميةِ الى بني قضاعة. فرحلَ التنوخيون الى شمالي سوريا، الى منطقةِ نفوذِ الروم، وكان هذا في إثرِ دحرِ خليفتِه شهبور الأول (٢٤١،٢٧٢) للتنوخيين إرهاقاً وبغياً.

فأتَمَ التنوخيون في الضفةِ الغربيةِ من الفراتِ الأعلى، قرب:

قنسرين التي تقع على طريقِ القوافلِ بين حلب وانطاكية، والتي حصّنها سلقوس نيكاتور، ودهاعا خلقيس ادبيلوم

وخناصر التي هي كوناسار القديمة.

ومعرّة النعمان التي هي أرّا القديمة.

هناك من يشيرُ الى انّ سببَ اضطهادِ الفرسِ للتنوخيين يعودُ الى عدمِ إيلافِهم الدين الفارسي، بسببٍ من مسيحيتهم. فالثابتُ عند المؤرخين في شأنِ معتقدِهم الديني أنّهم مشوا في إثرِ المسيحِ تمسكاً بما نُقل اليهم في العراقِ من إتلئبابِ النصرانيةِ ووفائها بعهدِ الله.

وفي الإعصابِ كانوا يستخدمون عبارةَ (يا عبادَ الله) استثارةً في المِحَن.

لكنَّ النصرانيةَ لم تُعَمَّمْ فيهم، فتقابضَ العديدُ منهم على الوثنيةِ، الى أن ظهرَ الأسقفُ اللاخلقيدونيُّ أحودامه (ت ٥٧٥)، الذي سقّفه يعقوب البرادعي على أهلِ السراطِ المستقيمِ وأقامه مُبَشّراً في المنطقةِ الساسانيةِ داعياً العربَ الرحلَ الى النصرانيةِ، فهدى منهم خلقاً كثيراً، وعلى رأسهم التنوخيين.

ولمّا هدى ابن كسرى الأول، أمرَ كسرى بقطعِ هامتِه فمات شهيداً سنة ٥٧٥ م.

المحالفةُ التنوخية الرومية:

في المحالفةِ الرومية اتفاقٌ واجتماعٌ على أنْ يقومَ الجانبُ التنوخي بارتقابِ القبائلِ العربيةِ المتحالفةِ مع الفرسِ بملحظ أنَّ التنوخيين لا يفتأون يشرفون من هنا ومن هناك على كلِّ الجهاتِ في الحدودِ الرومية، فيصدّون القبائلَ الغازيةَ ويدحرونها.

وفيه أيضاً وَلاءٌ يطّردُ طوالَ المعاهدةِ بابرازِ الاستحكامِ وقوةِ الشكيمةِ.

وفيه أيضاً تلافقٌ على معاونةِ الرومِ عند اندلاع الحربِ بين الفرسِ والرومِ.

ولقاءَ تلك المساندةِ كان الرومُ يجودون على التنوخيين بمبادّةٍ نقديةٍ وعينية.

لم تكن المحالفةُ عقداً يجري على نسقٍ واحدٍ ووتيرةٍ مطردةٍ، بل كان كلُّ عهدٍ يقضي على الالتزامِ السابقِ مستبدلاً به التزاماً جديداً.

وهكذا بادر الأمبراطور قسطنديوس (٣٣٧، ٣٦١) الى إبرامِ اتفاقٍ جديدٍ مع التنوخيين إثرَ اندلاع الحربِ بين الفرسِ والروم. غيرَ أنَّ الأمبراطور قسطنديوس مالَ الى النحلةِ الآريوسيةِ فبالغ التنوخيون في المخالفةِ والعصيانِ للرومِ فلم يطبّقوا التلافق واللحقَ فتجنّبوا الحروبَ الفارسيةَ الرومية (٣٥٩،٣٦١) قبلَ حكمِ الملكةِ ماوية لم يحفظ التاريخُ سوى أسماءِ ثلاثةٍ من الزعماءِ التنوخيين هم:

النعمان بن عمرو.

وعمرو بن النعمان.

والحوار بن عمرو بن النعمان.

أما ماويةُ التنوخية المعروفةُ بماءِ السماءِ لحسنِها، والتي هي على قولِهم بنتُ عوف بن جشم فتولّت بعد وفاةِ زوجها في أيامِ الأمبراطورِ والنس (٣٦٤، ٣٧٨) الذي دان بالنحلةِ

الآريوسيةِ ونفى الائمةَ المستقمي الصراط، مستبدلاً إياهم بمن كان آريوسياً في تبعتِه. فطلبَ إحلالَ الكثيرين من الاسقفيةِ ومن بينهم اسقف التنوخيين.

ولعلَّ هذا كان أحدَ أسبابِ استبراءِ ماوية من عهدةِ التحالفِ بين التنوخيين والروم.

يصفُ المؤرخُ سوزومنوس غزوةَ ماوية على الرومِ قائلاً إنَّها حملت على مدن فينيقية وفلسطين وضربت فيها ونكّلت وقهرت جيشَ الرومِ ببسالةِ نفسٍ. ولمَّا طلبوا الهدنةَ انكرتها عليهم وطلبت تسقيفَ ناسكٍ على امَّتها اسمه موسى الذائع صيتُه عند التنوخيين.

ولما فازت ماويةُ بما كانت تصبو اليه وضعَ بعضُ الاساقفةِ الايدي على موسى، بعد أن كان اصحابُ النحلةِ الآريوسيةِ قد حكموا عليهم بالتنحيةِ فصار موسى أحدَ ائمةِ العربِ المسيحيين. فهمَّ بنشاطٍ تبشيريٍّ بين من لم يبلغ قوامَ السراطِ. ولقد أعادَ المحالفةَ التنوخيةَ الرومية الى سابقِ عهدِها.

إثر المحالفةِ الجديدةِ أرسلت ماوية عدداً من الألوِيةِ للتناصرِ ضد القوطِ، دفاعاً عن القسطنطينيةِ.

وفي حكمِ ماوية وُجدت الفُرجُ بين أجزاءِ الطرفين المتحالفين الى أن اعتزلت ماويةُ العرشَ بعد تساقطِ جيشها ضعفاً ووهناً. فما كان منها الاّ الزّهادةُ والتعبدُ والتقشفُ وطرحُ مرغوبها في السلطةِ في ديرِ بنته لهذا الغرض.

فلمَّا اعتزلت ماويةُ الحكمَ أصبحَ التنوخيون من الآفلين.

فارتدَّ قسمٌ منهم الى الاراضي الفارسيةِ. وقسمٌ آخرُ جاءَ الحيرةَ وأقامَ فيها على نصرانيتِه.

ومن بقي في الاراضي السوريةِ انقطعت اخبارُه حتى الفتح الإسلامي وذلك بعد أن تمَّ الإعراضُ والتنازلُ عن الحكمِ في تراجعٍ واستسلامٍ.

فهؤلاء لم يعرفوا المروقَ من المسيحيةِ، بل رعوا وحرسوا أديارَهم وكنائسهم قرب قنسرين حتى عهد الخليفةِ العباسي المهدي.

كنسياً، أقامَ التنوخيون أساقفةً وقسوساً عليهم، وعرفَ الزهدُ انديا حاً في ربوعهم وتخومهم، فكان لهم العديدُ من مشاهيرِ أهل الفقهِ وعلمِ الكلامِ، أهمهم:

بمفيليوس الذي قام بالتلافقِ في قبولِ لاهوتِ الابن والتوقيع على مقررات المجمع المسكوني الاول الملتئم في نيقية عام ٣٢٥ ميلادية.

ثيوتيموس الذي شارك في مجمع الكنيسةِ الانطاكيةِ عام ٣٦٣ ميلادية. في هذا المجمع درسَ الأحبارُ نحلةَ القائلين بشبهِ الابن للآبِ، فأبسلوها واتخذوا قراراً بالتماهي بين الآبِ والابنِ، او بالتشابهِ جوهراً في كلِّ شيءٍ، وبالاخص في الماهيةِ. وحررَّ آباءُ المجمع الى الامبراطورِ ايوفانيوس طالبين عقدَ مجمعٍ كبيرٍ لابرامِ قراراتهم مسكونياً.

الراهبُ موسى الذي ذاعَ صيتُه قداسةً وطهراً. ولقد مثَّل دوراً تبشيراً هاماً في الممالكِ العربيةِ، حتى أن ماويةَ دقت أبوابَ الحربِ لاقامتِه حبراً على التنوخيين، فنجحت فيما ابتغت. وبعد أن رقدَ رقدة الموت قدَّسته الكنيسةُ، فكان في عدادِ اوليائها.

ومن مسرى هذه الأحداثِ يتبينُ أنَّ التنوخيين آمنوا بأنَّ الابنَ متماهٍ مع أبيه وأنَّه ينحدرُ قبلَ الدهورِ ولادةً من جوهرِ ابيه.

وهكذا أخذوا على عاتقِهم معاضدةَ المجمع النيقاوي بتقويةِ مبادئه وشدِّ أزرِ روحانيتِه.

كان للتنوخيين في بناءِ الكنائسِ شهرةٌ واسعةٌ، فشادوا العديدَ منها، أهمها:

دير خناصرة، في الحيرة.

كنيسة العرب في معرة النعمان.

دير النقيرة قرب المعرة.

دير العرب .

ولعلَّ شفيعهم كان الحواري توما.

انَّ التنوخيين عُمُدُ المسيحيين العرب في إذعانِهم، بالجَنَانِ للهِ الأحد، وفي خضوعهم بالاركانِ المستقيمةِ المعتَقد.

فهم الذين آمنوا بالمسيح ولم يلبسوا إيمانَهم بظلمٍ.

فكانوا مع القبائلِ المتنقلةِ في الباديةِ السوريةِ من خلَّصِ المسيحيين العرب